

البلاغة القرآنية في آيات الرؤيا المنامية

د/ محمد مصطفى محمود ليلة

مدرس البلاغة والنقد في كلية

الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

وبعد:

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة، الذي أعجز الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثله، ولذا فإن أفضل ما توجه إليه الجهود والعناية والاهتمام، ويذل في سبيله كل نفيس هو خدمة كتاب الله - تعالى - والبحث حول بلاغته وإعجازه، وبديع تراكيبه، وحسن نظمته، وجودة سبكه، وروعة أدائه من أفضل القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، ولذا كان اختياري لهذا البحث البلاغي: "البلاغة القرآنية في آيات الرؤيا المنامية" وقد رتبها بحسب ورودها في القرآن الكريم وترتيبها في المصحف.

وقد انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهمية هذا البحث، وخطته، والمنهج الذي تسير عليه هذه الدراسة.

وأما التمهيد: ففيه التعريف بالرؤيا، والفرق بينها وبين الحلم.

المبحث الأول: رؤيا النبي ﷺ يوم بدر.

المبحث الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام.

المبحث الثالث: رؤيا صاحبي السجن.

المبحث الرابع: رؤيا ملك مصر.

المبحث الخامس: رؤيا إبراهيم عليه السلام.

المبحث السادس: رؤيا النبي ﷺ في الحديبية.

وأما الخاتمة: ففيها أهم نتائج البحث. ثم أعقبها بفهرس للمراجع وآخر لموضوعات البحث.

وكان منهجي في هذا البحث ما يلي:

كنت أذكر موطن الرؤيا في القرآن الكريم، ثم بيان سبب نزوله إن وجد أو المعنى العام له، ثم التحليل البلاغي له، وذلك بدراسة كل الألوان البلاغية الموجودة فيه، دراسة كلية قتم بالسياق، وتأزر الألوان البلاغية المختلفة، وبيان كل ما في الموطن من أسرار بلاغية مختلفة سواء تعلقت بعلم المعاني أو البيان أو البديع، وذكر كلام البلاغيين والمفسرين فيه، وبيان مواطن الاختلاف إن وجدت، والتوفيق بينها ما أمكن.

والله أسأل أن يجعل أعمالنا صالحة، ولوجهه خالصة، وأن يرزقنا فهم كتابه، والوقوف على أسرارها، وأن يجعل لي هذا العمل في الميزان إنه الجواد المنان.
وصلى الله على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور/ محمد مصطفى محمود ليلة

مدرس البلاغة والنقد في الكلية

التمهيد

ويتضمن:

- ١ - تعريف الرؤيا**
- ٢ - الفرق بين الرؤيا والحلم**

تعريف الرؤيا

اهتمت الشريعة الإسلامية بجميع شئون الحياة الدنيوية والأخروية، وبأحوال الإنسان المختلفة، ومنها ما يحدث له في النوم من مشاهدات، وخيالات ومبشرات ومخزونات، وما يسمى بالرؤيا التي يراها النائم، فلم تترك شيئاً إلا وبينته، وفصلت القول فيه.

وقد عرف العلماء "النوم" وهو الحالة التي يرى فيها الإنسان رؤياه بأنه "حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تنقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً" (١).

وفي تعريف الرؤيا: جاء في القاموس المحيط: "الرؤية" النظر بالعين والقلب، والرؤيا: ما رأيته في منامك جمع: رؤى (٢).

وفي مختار الصحاح: الرؤية بالعين... ورأى في منامه رؤيا على وزن "فعلى"، وجمع الرؤيا: رؤى بالتوین (٣).

فالرؤيا على وزن "فعلى" وهي ما يراه الإنسان في منامه وجمعها: رؤى، وفرقوا بينها وبين الرؤية بأن الرؤية ما كانت بالعين، وقد تحيىء الرؤيا بمعنى: الرؤية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَبْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا قَسْنَةً لِلْعَاسِ﴾ (٤) حيث رأى النبي ﷺ بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين.

وقال الراغب الأصفهاني: الرؤية: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس.

(١) الكليات : ١٤٩٦ وينظر التعريفات : ٢٢٢.

(٢) القاموس المحيط : "رأى".

(٣) مختار الصحاح : "رأى".

(٤) الإسراء : ٦٠.

الأول: بالحاسة وما يجري مجراها نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ^(١) وقوله: ﴿فَسِيرَى إِلَهُ عَمَلِكُمْ﴾ ^(٢).
والثاني: بالوهم والتخيل نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَسُوْقُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ ^(٣).

والثالث: بالتفكير نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ^(٤).

والرابع: بالعقل نحو قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ^(٥).

وقال: والرؤيا: ما يرى في المنام، وهو فعلى، وقد يخفف فيه الحمزة فيقال بالروا ^(٦).

وعن حقيقة الرؤيا يقول القاضي أبو بكر بن العربي: الرؤيا إدراكات علقها

الله - تعالى - في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان، إما بأسمائها أي: حقيقتها،

وإما بكناها أي: بعباراتها، وإما تخليط، ونظيرها في اليقظة الخواطر، فإنها قد تأتي على

نسق في قصة، وقد تأتي مسترسلة غير محصلة... وقال غيره بأنها اعتقادات.

والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها

في قلب اليقظان، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أمور أخرى يخلقها في ثاني

الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله

خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة

^(١) الزمر : ٦٠.

^(٢) التوبة : ١٠٥.

^(٣) الأنفال : ٥٠.

^(٤) الأنفال : ٤٨.

^(٥) النجم : ١١.

^(٦) المفردات : "رأى".

الملك فيقع بعدها ما يسر، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر، والعلم عند الله تعالى^(١).

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفياه الذين زكت نفوسهم، فتصل نفوسهم بتعلقات من علم الله وتعلقات من إرادته وقدرته، وأمره التكويني، فتتكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها.

وللرؤيا مراتب:

منها: أن تُرى صور أفعال تتحقق أمثالها في الوجود...
ومنها: أن تُرى صور تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع... وغير ذلك^(٢).

(١) فتح الباري : ٤/١٦.

(٢) التحرير والتنوير : ٢١٠/١٢.

الفرق بين الرؤيا والحلم

وردت "الأحلام" في القرآن الكريم ثلاث مرات ^(١)، فجاءت على لسان الملائكة من قوم عزيز مصر حين سألهم أن يفتوه في رؤياه: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ^(٢)، وجاءت في جدل المشركين وافتراءهم على القرآن والرسول ﷺ: ﴿كُلُّ قَوْلٍ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ اقْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ^(٣) ويشهد سياقها بأنها الأضغاث المشوشة، والهواجس المختلطة، وأنت في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع، دلالة على الخلط والتشويش، لا يتميز فيه حلم عن آخر.

وأما الرؤيا فجاءت في القرآن الكريم سبع مرات، ففي سورة الأنفال جاءت رؤيا النبي ﷺ يوم بدر في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابَعِكَ قَلِيلًا﴾ ^(٤) وفي سورة يوسف جاءت رؤيا يوسف عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وجاءت رؤيا صاحبيه في السجن ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وجاءت رؤيا ملك مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سَبَّالَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ...﴾ ^(٥) وجاءت في سورة الصافات رؤيا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنِّي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ ^(٦)

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢١٦ "حلم".

(٢) يوسف: ٤٤.

(٣) الأنبياء: ٥.

(٤) الأنفال: ٤٣.

(٥) يوسف: آيات ٤، ٣٦، ٤٣.

(٦) الصافات: ١٠٢.

سورة الفتح رؤيا النبي ﷺ في الحديدية وذلك في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ تَدْخُلُ الْمَسْجِدَ﴾^(١).

وكل هذه الرؤى في الرؤيا الصادقة، ولم تستعمل إلا بصيغة المفرد، وفي ذلك دلالة على التميز والوضوح والصفاء.

ومن بين المرات السبع جاءت أربع مرات للأنبياء، فهي من صدق الإلهام القريب من الوحي.

وهناك ثلاث رؤى لغير الأنبياء، رؤيتان لصاحبي يوسف عليه السلام في السجن ، ورؤيا ملك مصر ، وقد صدقت هذه الرؤى ، وصدقت رؤيا الملك ، وعبر عنها القرآن الكريم بالرؤيا لوضوحها في منامه وجلاتها وصفائها، وإن بدت للملأ من قومه هواجس أوهام وأضغاث أحلام.

وقد ذكرت الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن أن الرؤيا جاءت خمس مرات للأنبياء، وذكرت منها رؤيا النبي ﷺ في الإسراء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَمَرْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ وقد ذكر الحافظ بن حجر قول ابن عباس: إنها رؤيا عين وقال: ويحتمل أن تكون الحكمة في تسمية ذلك رؤيا لكون أمور الغيب مخالفة لرؤيا الشهادة فأشبهت ما في المنام... وذكر قول القرطبي: قال بعض العلماء: قد نجى الرؤية بمعنى الرؤيا كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَمَرْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٢) فزعم أن المراد بها ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من العجائب ، وكان الإسراء جميعه

(١) الفتح : ٢٧.

(٢) الإسراء : ٦٠ وينظر الإعجاز البياني للقرآن : ٢١٥، ٢١٦، ومن وحي القرآن: ١١٩، ١٢٠.

في اليقظة. وقال: وعكسه بعضهم فرغم أنه حجة لمن قال إن الإسراء كان مناماً،
والأول المعتمد^(١).

وعلى ذلك فالرؤيا والحلم كلاهما ما يراه الإنسان في المنام، ولكن غلبت
الرؤيا على: ما يراه الإنسان من الخير والشيء الحسن. والحلم: ما يراه الإنسان من
الشر والشيء القبيح والمشوش، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: ﴿الرؤيا من الله والحلم
من الشيطان﴾^(٢).

^(١) ينظر فتح الباري : ٤/١٦.

^(٢) الحديث رواه سلم ، ك الرؤيا : ١٧٧١/٤. وينظر الكليات ١٠/٦٣٤.

المبحث الأول

رؤيا النبي ﷺ يوم بدر

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمُ كَثِيرًا لَفَسَّدْتُهٖ وَلَئِنَّا رَعْنَاهُ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الأنفال: ٤٢.
المعنى العام:

في هذه الرؤيا يرى النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً، فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، ولو رأهم في منامه كثيراً لفشلوا، وجنوا عن قتالهم، وتنازعوا في أمر قتالهم هل يلاقونهم أو لا؟ ولكن الله - سبحانه - سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين الرسول ﷺ، وهو عليم بما سيكون في الصدور من الجراءة، والجن، والصبر، والجزع^(١).

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ قَلِيلًا﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها وهي قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدُوَّةِ الدِّينِ﴾^(٢) لما بينهما من كمال الاتصال، فهي بمثابة بدل اشتمال منها، فهذه الرؤيا لما اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدنيا، لوقوعها في مدة نزول المسلمين بالعدوة من بدر، وفي ذلك تقرير للحكم السابق وتقويته بتعيين المراد وإيضاحه، وذلك ببيان نعم الله في رؤية نبيه ﷺ ما يكون سبباً في تثبيت المؤمنين وتشجيعهم على عدوهم.

والتعبير بالمضارع "يُرِيكُهُمُ" عن الماضي "أَرَاكُهُمُ" وذلك لاستحضار حال تلك الصورة العجيبة في الذهن، وتذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، فقد مضت هذه الرؤيا بالنسبة لزمن نزول هذه الآية.

(١) ينظر فتح القدير ٣١٤/٢.

(٢) الأنفال: ٤٢.

وقوله: " فِي مَنَامِكَ " أي في رؤياك، وقيل: عني بالنام محل النوم وهو العين أي: في موضع منامك ، روى ذلك عن الحسن، فيكون فيها إيجاز بحذف المضاف، أو يكون من قبيل المجاز المرسل، علاقته المحلية حيث "أطلق اسم الحال على المحل، لأن التقدير: في عينك" (١).

وأميل إلى أنها من قبيل الحقيقة، لأن الرؤيا تكون في المنام لا في العين، ولأنه ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَغْيَعِكُمْ قَلِيلًا وَيَمْلَأُكُمْ فِي أَغْيَعِهِمْ﴾ (٢) فتكون هذه الرؤية الالتقاء والمواجهة وتلك التي معنا رؤيا النوم. ولذا يقول الإمام الزمخشري: "وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته" (٣).

"والرؤيا صادقة في دلالتها الحقيقية، فقد رآهم رسول الله ﷺ قليلاً، وهم كثير العدد، ولكن قليل غناؤهم، قليل وزفهم في المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع، والإيمان الدافع، والزاد النافع.. وهذه الحقيقة الواقعة - من وراء الظاهر الخادع - هي التي أراها الله لرسوله فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة" (٤).

والغرض من هذا الخبر تذكير المؤمنين بنعمة الله - سبحانه - وذلك برؤية النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً غناؤهم ووزفهم في المعركة ، ليخبر أصحابه بهذه الرؤيا التي ثبتهم وشجعتهم على لقاء عدوهم ، وهذا كناية عن وهنهم وضعفهم.

(١) البرهان : ٢٨٢/٢ وينظر: القرطبي: ٢٢/٨، وفتح القدير: ٣١٣/٢، والكشاف: ١٦١/٢.

(٢) الأنفال : ٤٤.

(٣) الكشاف : ١٦١/٢.

(٤) في ظلال القرآن : ١٥٢٦/٢.

وقوله: ﴿وَأَمَّا كَثِيرٌ فَلَمْ يَلْقَ عَدُوَّهُمْ وَتَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لو
 رأهم كثيراً لخرتم وجبتهم عن لقاء عدوكم وتفرقت آراؤكم في أمر قتالهم، فيكون
 ذلك سبباً لانفrazامكم، وعدم إقدامكم على قتال عدوكم.

وقدم الفشل على التنازع لأنه سبب من أسبابه، ومقدمة من مقدماته، فلو
 أرى الله المؤمنين كثرة المشركين لجبنوا عن لقاءهم، وحدث بينهم تنازع في لقاءهم.
 ونكر قوله: "كثيراً" لإفادة التكثير والتعظيم، وهو مبني على الشرط الذي لم
 يتحقق، حيث أن النصر كان حليفهم، ولو تحقق الشرط لفشلوا وهزموا، وهو
 رؤيتهم في المنام كثيراً.

وبين قوله: "قليلاً وكثيراً" طباق أكد المعنى في الذهن ووضحه، وقوله:
 "ولتنازعتم في الأمر" يقال: نزع الشيء: حوله عن موضعه، وإن كان على نحو
 الاستلاب، ونزع الأمير العامل من عمله: أزاله. والتنازعات: تزعزاع الأنفس من
 صدور الكفار كما يفرق النازع في القوس: إذا جذب الوتر^(١). والتنازع: التخاصم
 ، وأصله: المجاذبة في الأعيان شبهت بها المجاذبة في المعاني ، حيث شبه تداولهم الرأي
 فيما بينهم بتجاذب الشيء ، فكان المجادل يتزعزع الرأي لينسبه إلى نفسه ، وذلك
 على سبيل الاستعارة التبعية. أو شبه "الأمر" - والمراد به: الخطة التي يجب إتباعها
 في قتال العدو من ثبات أو انجلاء القتال... وغير ذلك.

فالتعريف في "الأمر" للعهد، وهو أمر القتال وما يقتضيه^(٢) - شبه بالشيء
 المحسوس الذي يتصور فيه المجاذبة، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه
 وهو "التنازع" على سبيل الاستعارة المكنية. وهذا يوضح مدى خلافهم فيما بينهم،

(١) لسان العرب: "نزع".

(٢) التحرير والتنوير: ٢٤/١٠.

ويوحى بمدى حرص كل منهم على ما معه من رأي إذا لم يخبرهم النبي ﷺ برؤياه ، فكانت رؤياه رحمة لهم ، وحفاظاً على وحدة صفهم ، وتآلفهم ونصرهم على عدوهم.

ووصل بين هذه الجملة وما قبلها وذلك للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع، وجمع ضمير الخطاب في الجزاء، وذلك في قوله "لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ" مع إفراده في الشرط في قوله "أَرَاكَهُمْ" حيث وضع الجمع موضع المفرد، فأسند الفشل والتنازع إلى الصحابة، لأن النبي ﷺ معصوم من ذلك، فأسند الفشل والتنازع إلى من يجوز في حقه ذلك، ويشير إلى ذلك العلامة "الألوسي" بقوله: "جمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط للإشارة إلى أن الجنب أو الفشل يعرض لهم لا له ﷺ إن كان الخطاب للأصحاب فقط، وإن كان للكل أي للرسول ﷺ وأصحابه، يكون من إسناد ما للأكثر للكل"^(١)، وهذا من محاسن القرآن^(٢) وقوله: "وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ" أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع في أمر قتال المشركين. ووضع الظاهر لفظ الجلالة "الله" موضع الضمير فلم يقل: ولكنه وذلك لقصد التأكيد على إسناد السلامة من الفشل والتنازع إلى الله - تعالى - وأنه كان برعايته وعنايته، وللاهتمام بتثبيت قلب النبي ﷺ وأصحابه، وذلك برؤيته المشركين في المنام قلة في الوزن والقيمة ، وذلك لينقوا بنصر الله وتأييده لهم. وقوله: "سلم" فعل متعد، حذف متعلقه المفعول والجار والمجرور، لدلالة قوله "لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ" عليه وذلك للإيجاز، والتقدير: سلمكم من الفشل والتنازع.

يقول الشيخ/ الطاهر بن عاشور:

^(١) روح المعاني : ٨/١٠ ، وينظر حاشية القنوي: ٩٣/٩.

^(٢) البحر المحيط : ٣٣٠/٥.

"مفعول" سلم" ومتعلقه محذوفان إيجازاً إذ دل عليه قوله "لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ"

والتقدير: سلمكم من الفشل والتنازع بأن سلمكم من سبهما، وهو آراءكم واقع عدد المشركين، لأن الاطلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس قهياً له، وتخوفاً منه، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفر لهم متهى الشجاعة^(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بالأحوال المصاحبة لضمائر النفوس، فأوحى الله إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزية لعلمه بما في الصدور البشرية من تأثر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات، فعلم أنه لو أخبركم بأن المشركين يهزمون، واعتقدتم ذلك لصدق إيمانكم، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيراً في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقادي أن عددهم قليل، لأن الاعتقاد بأنهم يهزمون لا ينافي توقع شدة تزل بالمسلمين، من موت وجراح قبل الانتصار، فأما اعتقاد قلة العدو فإنما تثير في النفوس إقداماً واطمئناناً بال، فلعلمه بذلك أراكمهم الله في منامك قليلاً^(٢).

وفي الآية تشابه أطراف، فختام الآية ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ مناسب ومتسق مع ما تقدم من السياق، فلما علم الله ما يكون من بعض الصحابة من خوف وجبن وجزع في قتال المشركين أراهم قلة في منام النبي ﷺ فثبت قلبه وأصحابه، وكل ذلك يتعلق بعلم الله سبحانه.

(١) التحرير والتنوير : ٢٤/١٠.

(٢) المرجع السابق : ٢٥/١٠.

المبحث الثاني

رؤيا يوسف عليه السلام

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ * قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿يوسف: ٤ ، ٥ .
المعنى العام:

في هذه الرؤيا يبين يوسف عليه السلام أنه رأى رؤيا غريبة ، وهو صغير ، فقصها على أبيه يعقوب عليه السلام ففهمها فهماً مجملاً ، وعلم من خلالها أن يوسف عليه السلام سيكون له شأن عظيم ، وسلطان كبير يسود به أهله ، ولذا خاف أن يسمع إخوة يوسف ما سمع ، فيفهموا منها ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا له ، فقد رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر مجتمعين ، وراهم ساجدين له ، وفي ذلك تعظيم له ، وعلو لشأنه ، ولذا لما أبوه عن قص رؤياه على إخوته — بعد ما فهم منها أن الله يشره ببشريات عظيمة له ، منها خضوع إخوته وتعظيمهم له — كپلا يحسدوه ويحتالوا للإيقاع به ، ويسول لهم الشيطان ذلك — وفي ذلك بيان لمدى حرصه الشديد على تجميع قلوب بنيه على المحبة والتآلف والتآزر ، وأن الكيد وإن وقع منهم فإن ذلك من الأمور الطبيعية التي تقع من البشر بتسويل الشيطان لهم ، ولذا فلا يكن في صدره حرج من جهل إخوته عليه في المستقبل ، ويأتي تأويل الرؤيا في نهاية السورة ، فالشمس والقمر أبوه وأمه ، والأحد عشر كوكباً إخوته.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها ، وهي قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ^(١) لما بينهما من كمال الاتصال ، فهي بمثابة

(١) يوسف : ٣ .

بيان أو بدل منها ، وفي ذلك تقرير وتأكيـد وتقوية لما سبق ، لأن ما ذكر في قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لم يتضح المراد منه ، لأن أحسن القصص يشتمل على قصص كثير ، فلما جاء بالجملة الثانية ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ تبين المراد واتضح .
والإضافة في قوله "لأبيه" توحى بأن يوسف عليه السلام أفضى برؤياه إلى أقرب الناس إليه ، ومستودع أسرارهِ ، ومن يتيقن فيه العلم والورع ، لتأويل رؤياه .
ولذا قال الرسول ﷺ : " الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها ، فإذا حدث بها وقعت ، فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محباً أو ناصحاً " (١) .

ومع كون أبيه حاضراً معه ناداه بأداة النداء الموضوعـة للبعيد "يا" في قوله " يا أبت " للدلالة على رفعة أبيه وعلو شأنه ، وللدلالة على عظم الكلام الآتي بعد النداء ، ليهتم به أبوه وينتبه له ، وفي ذلك استعارة تبعية في الحرف "يا" حيث شبه مطلق نداء القريب بمطلق نداء البعيد ، بجامع مطلق الدعاء في كل ، ثم استعيرت "يا" الموضوعـة لنداء البعيد لنداء القريب ، وذلك لرفعة شأن المنادى وزيادة في تنبيهه وتأكيـد دعائه .

والإضافة في " أبت " توحى بالبر والطاعة ، والتنبيه على محل الشفقة والعطف في طبع الأبوة ، وفيها جلب لانتباهه ، واستدرار لعطفه وحنانه ، وحرص على إخباره برؤياه العجيبة عله يجد عنده ما يطمئن قلبه ويرمحه .

وقوله : ﴿ إِنِّي مَرَأَتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ "من الرؤيا لا من الرؤية ..
لقوله : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ﴾ (٢) ولأن الظاهر أن وقوع مثل هذه الأمور البديعة في

(١) التمهيد لابن عبد البر: ١/٢٨٣ .

(٢) يوسف: ١٠٠ .

عالم الشهادة لا يختص برؤية راءٍ دون راءٍ ، فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس^(١).

ولئلا يتردد يعقوب عليه السلام في رؤيا يوسف عليه السلام أكد له الخبر بـ "إن" ليتمكن ويثبت في ذهن أبيه حتى لا يظن أنه يلهو ويلعب، لأنه مازال غلاما، وتقديم المسند إليه "ضمير المتكلم" على خبره الفعلي ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ يفيد تقوية وتأكيده رؤياه وأهميتها، وقوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته ويكون ذلك من قبيل ذكر الخاص بعد العام لاختصاصه بمزيد رفعة وفضل وشرف على غيره . قال الإمام الزمخشري رحمه الله: جاء ذكر الشمس والقمر معطوفين على الأحد عشر كوكبا بيانا لفضلهما واستبدادهما بالميزة على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكال عن الملائكة ثم عطفهما عليها بعد ذلك.^(٢)

ويحتمل أن تكون الواو بمعنى "مع" أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ، ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته إخوته^(٣).

ونكر قوله: ﴿كَوْكَبًا﴾ للتفخيم والتعظيم من شأنها. وقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالإخبار عن مجرد رؤية الكواكب والشمس والقمر يثير في النفس تساؤلاً واستفساراً عن كيفية هذه الرؤيا ، وهينة المرئي ، فأتي قوله:

(١) تفسير أبي السعود: ٢٥٢/٤.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ البقرة: ٩٨.

(٣) الكشف: ٣٠٢/٢ وينظر: تفسير أبي السعود: ٢٥٢/٤.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ كشفاً لتلك الرؤيا ، وبياناً لحال المرئي ، فهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً ، بين حالهم التي رآهم عليها ، كأن يعقوب عليه السلام لما سمع من يوسف عليه السلام " إني رأيتُ " سألته عن حال رؤيتها فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١) وكرر الفعل " رأيتُ " لتأكيد رؤيته ، ويحتمل أن يكون رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم ثانية يسجدون له ، لأنه لو رآهم ساجدين من أول الأمر لكان يمكن أن يقال عن وضعهم هكذا - ساجدين من أول الأمر - فهذه حالهم ، لكنه رآهم على الحقيقة أولاً بدون سجود ، ثم رأى المنظر الثاني ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ولذا تكررت كلمة " رأى " فرأى الأولى للحقيقة قبل أن تسجد ، و" رأى " الثانية للحقيقة ساجدة^(٢).

وتقديم الجار والمجرور " لي " على عامله شبه الفعل " سَاجِدِينَ " لإظهار العناية بما هو أهم ، وكذا مراعاة الفاصلة ، وعبر به عن معنى تضمنه كلام يوسف عليه السلام بلغته يدل على حالة في الكواكب من التعظيم له تقتضى الاهتمام بذكره ، أفاده تقديم المجرور^(٣).

ومن المعلوم أن الكواكب لا يتأتى منها ما يتأتى من العقلاء ، ولكن القرآن أجراها مجرى العقلاء ، حيث أعاد الضمير عليها الذي يعاد به على العقلاء ، وذلك في قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ بدل " رأيتها " وأجرى وصف من أوصاف العقلاء عليها حيث قال: ﴿سَاجِدِينَ﴾ بدل " ساجدة " إذ الجمع بالواو والنون مختص بالعاقل ، وذلك لوصفها بصفاتهم وهي السجود ، وهو إما استعارة مكنية

(١) ينظر المرجع السابق نفسه ، ومفاتيح الغيب: ١٠٢/٥ .

(٢) ينظر موسوعة تفسير سورة يوسف: ٦٨ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير: ٢٠٠٨/١٢ .

بتشبيهم يقوم عقلاء مصلين ، وضمير العقل والسجود قرينة تخيلية وترشيح ، أو استعارة تمثيلية ، شبه الهيئة الملتزمة من الشمس والقمر والكواكب المذكورة وخضوعهم ليوسف عليه السلام بالهيئة المنتزعة من الساجدين وسجودهم للمعبود ، وخضوعهم للملك الودود ، فاستعمل اللفظ الموضوع للهيئة المشبهة بها في الهيئة المشبهة^(١).

وفي هذا تقرير لفضل يوسف عليه السلام وطهارته وذكاء نفسه وصبره على البلاء ، وبيان لعلو شأنه ، ورفعة مقامه ، ليكون على ذكر من ذلك كلما حلت به ضائقة فتطمئن بذلك نفسه.

"وإنما أخبر يوسف عليه السلام أباه بجماله الرؤيا ، لأنه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً ، وعلم أن الكواكب والشمس والقمر كناية عن موجودات شريفة ، وأن سجود المخلوقات الشريفة له كناية عن عظمة شأنه ، ولعله علم أن الكواكب كناية عن موجودات متماثلة ، وأن الشمس والقمر كناية عن أصليين لتلك الموجودات فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه..."^(٢).

ولما علم يعقوب عليه السلام من دلالة هذه الرؤيا أن يوسف عليه السلام يبلغه الله مبلغاً عظيماً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام ، خاف عليه حسد الإخوة وبغيهم ، فقال صيانة لهم من ذلك ، وله من معاناة المشاق ، ومقاساة الأحزان ، وإن كان واثقاً بأن الله - تعالى - سيحقق ذلك

(١) حاشية القونوي على تفسير البضاوي: ٢٥٢/١٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠٨/١٢.

لا محالة ، وطمعاً في حصوله بلا مشقة: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾
وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالجملة مشيرة
لسؤال فكان سائلاً قال: فماذا قال يعقوب عندما سمع هذه الرؤيا من يوسف -
عليهما السلام-؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون بمثابة جواب عن هذا السؤال
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ .

ونادى عليه بمثل ما نادى يوسف ~~عليه السلام~~ عليه بأداة النداء "يا" للاهتمام به
وبالرؤيا التي جاء بها ، وللدلالة على شرفه وعلو شأنه ، والتصغير في "بُنَيَّ" يدل
على التحبب والعطف والشفقة على هذا الصغير السن.

وقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ خرج النهي عن معناه الحقيقي إلى
المعنى المجازي والمراد به النصيح والإرشاد، وذلك جأً له وخوفاً عليه ، وقد تآزر مع
دلالة النهي عدة أمور توحى بعظم حب يعقوب ليوسف-عليهما السلام- ومدى
حرصه وخوفه عليه منها: التصغير في "بُنَيَّ" ، ولتأكيد المراد بالنهي جاء فك الإدغام
في قوله: ﴿تَقْصُصْ﴾ وكذا خوف كيد إخوته له ، وتأکید ذلك بامصدر "كيداً".

وقد صحب النداء "يَا بُنَيَّ" النهي "لَا تَقْصُصْ" وذلك لضمان اهتمام
المخاطب والتفاتة وتبعه لما سيلقى عليه ، فيجعل النفس أشد تهيؤاً وتقبلاً لما سيأتي
بعد النداء من عدم قص الرؤيا على إخوته ، فيتمكن ذلك في ذهنه أيما تمكن.

وقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: إن تقصها عليهم يحسدوك فيدبروا
ويحتالوا للإيقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية ، كما يفعل الأعداء
في المكائد الحربية. يقال كاده إذا وجه إليه الكيد مباشرة ، وكاد له إذ دبر الكيد

لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا ، أو لمنفعته ، ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لإبقاء أخيه عنده: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ﴾^(١).

وهذا الأسلوب أكد من أن يقال: فيكيدوك كيداً ، إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الإيقاع ، وقد قيل: إنما جئ باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدى باللام، ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد ، أي: فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلة وكيداً^(٢).

وأكد الفعل "يكيدوا" بالمصدر "كيداً" للمبالغة في ثبوت الكيد ، وأنه واقع لا محالة، وهو من صفات الضعيف العاجز الذي يلجأ إليه لعدم قدرته على مواجهة عدوه ومصارحته ، فيظهر له المودة واللين وفي الوقت نفسه يضر له الحقد الدفين. والتكثير في المصدر "كيداً" للتعظيم ، يعني كيداً منكوراً خفياً عن فهمك مع التعظيم لهذا الكيد ، أي: كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على التخلص منه ، والمقصود زيادة مبالغة في التخويف^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ استئناف بياني جاء تعليلاً للنهي في تحذير يعقوب ليوسف-عليهما السلام- ولذا فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فكان سائلاً قال: كيف يكيد الإخوة لأخيهم ويؤذونه؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عن هذا السؤال ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ

(١) يوسف: ٧٦.

(٢) ينظر تفسير أبي السعود: ٤/٢٥٣، وتفسير المنار: ١٢/٢١٠.

(٣) ينظر فتح القدير: ٤/٣.

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَكَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَبْعَدَ وَقُوعَ الْكَيْدِ فِي حَقِّهِ مِنْ إِخْوَتِهِ
الْناشِئِينَ فِي بَيْتِ النَّبُوَّةِ فَأَزَالَ أَبَاهُ اسْتِعَاذَهُ وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ^(١).

و"أل" في "الشيطان ، والإنسان" لبيان الجنس والحقيقة ، فحقيقة الشيطان من
طبيعتها العداوة لحقيقة الإنسان منذ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وقد أكدت هذه الجملة بـ "إن" وإسمية الجملة ، وتقديم الجار والمجرور
لِلْإِنْسَانِ اهتماماً ، ثم النعت بالوصف "مبين" لاستجماع اهتمام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ
واستحضار قلبه ، وبيان مدى حب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لولده ، وشدة حرصه عليه.

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثالث

رؤيا صاحبي السجن.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْتُ بِأَوَّلِهِ إِنَّا نَزَّكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف (٣٦).

في الآيات السابقة "لما ذكر السجن وكان سبباً ظاهراً في الإهانة ، شرع سبحانه يقص من أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة ، كل ذلك بياناً للغلبة على الأمر ، والاتصاف بصفات القهر مع ما في ذلك من بيان تحقق ما تقدم به الوعد الوفي ليوسف عليه السلام وغير ذلك من الحكم " (١).

وقد عمّر ملك مصر فيهم فملّوه ، فدس بعضهم إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسماه لما ضمن لهما مال ، فأجاب الخباز وأبي صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما فاستأنسا بيوسف عليه السلام في السجن ، سواء أكانا مع يوسف في البيت الذي كان فيه أم كانا حبسهما مع حبس يوسف عليه السلام في نفس الوقت أو بعده ، ولعلهم تعمدوا إدخال يوسف عليه السلام مع الفتيين في نفس اللحظة على حساب أنهم ممن علقت بهم شبهة المؤامرة على قتل الملك إضافة لإشاعة اتهامه بأنه أراد سوءاً بامرأة العزيز ، وبهذا يكونوا قد أوقعوا التشويش على حدث سجنه " (٢).

(١) نظم الدرر: ٣٧/٤.

(٢) ينظر تفسير القرطبي: ١٨٨/٩ ، والتفسير القرآني للقرآن: ١٢٧/١٢ ، وتاريخ الأنبياء: ١٣٨.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ معطوف على محذوف والتقدير: ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه ودخل معه السجين فتيان،

وقوله ﴿فَتَيَانٌ﴾ تشبيه فتى، وقال فتيان، لأنهما كانا عبيدين والعبد يسمى فتى صغيراً كان أم كبيراً...، ولعل الفتى كان أعطى للعبد في عرفهم، ولهذا قال: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(١) ويحتمل أن يكون الفتى أعطى للخادم وإن لم يكن مملوكاً^(٢).

وقدم المفعول "السَّجْنَ" على الفاعل "فَتَيَانٍ" للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر ليتمكن في النفس فضل تمكن. وآخر المفعول "السَّجْنَ" عن الظرف "مَعَهُ" لئلا يتوهم أن يكون الظرف خبراً مقدماً على المبتدأ "فَتَيَانٍ" لو قيل: ودخلا السجن معه فتيان، وتكون جملة: معه فتيان حالاً من فاعل دخل.

وقوله: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ فصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فالجملة الأولى مثيرة لسؤال فكان سائلاً قال: ماذا قالاً بعدما دخلا معه السجن؟ وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عن هذا السؤال "قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي..." وفي ذلك إسراع لبيان ما كان من شأن الفتيين مع يوسف عليه السلام عندما رأيا إحسانه.

ويقول شيخ البلاغة العربية الإمام "عبد القاهر الجرجاني" عند حديثه عن هذا الموطن من الفصل والوصل: "اعلم أن الذي تراه في التزليل من لفظ "قال" مفصلاً غير معطوف، هذا هو التقدير فيه - والله أعلم - جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم:

(١) يوسف: ٣٠.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨٨/٩.

"دخل قول على فلان فقال كذا" أن يقولوا: "فماذا قال هو؟ ويقول المجيب: "قال كذا" أخرج الكلام ذلك المخرج، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلكه باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"^(١).

وعبر بالمضارع "أَرَانِي" عن الماضي "رَأَيْتَنِي" لاستحضار الصورة الماضية وقوله: ﴿أَغْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنياً ففي قوله: "خمرًا" مجاز مرسل، علاقته اعتبار ما سيكون حيث أطلق لفظ "الخمر" على الثمر الذي يعصر، لأن هذا الثمر يؤول إلى خمر، ولعل هذا الإطلاق ينبه المؤمن ويلفته إلى رزق الله الحسن، وما ينبغي على المؤمن إزاءه. إن الواجب عليه أن يأكل منه حلالاً طيباً، وألا يصيره إلى سكر ويحوله إلى خمر، فلما كان العصر مغيراً الثمرات ومحولاً لها إلى خمر، سكت النظم الكريم عن ذكر الثمر الذي يعصر، وأطلق عليه اسم ما سيصير إليه إسراعاً بالإفصاح عن الضرر الناجم عن الفعل ليدرك المؤمن أن هذا العصر يجب ألا يكون، ولذا لعن ﷺ الخمر، وشاربها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وجاء في بيان أضرارها الكثير من الأخبار، فهي مفسدة للعقل، متلفة للصحة والمال وهي أم الخبائث"^(٢).

وفي طي مراحل العصر والتصفية والتعتيق حتى يصير العنب خمرًا دلالة على براعة هذا الساقى وسرعته في تنفيذ ما يكلف به.

كما أن المراد من العصر العصر الذي يؤول إلى الخمر، فما كل العنب يعصر لأجل التخمير، فهناك أنواع مخصوصة من العنب تعصر للخمر، فالمقصود بالعصر هنا هو تخزين المعصور ليصير خمرًا.

(١) دلائل الإعجاز: ٢٤٠.

(٢) من بلاغة النظم القرآني: ٣٨٤.

"وهناك غرض آخر للمجاز وهو الإيجاز الناشئ من عموم الشيء المعصور الذي يمكن أن يتحول إلى خمر ، فقد يكون عباً أو ثمراً أو شعيراً أو تفاحاً ، ولذا حَسُنَ تسمية غير المحدد باسم المحدد الذي يؤول إليه المعصور ، فقوله تعالى على لسان ذلك الشخص: ﴿أَرَأَيْتِ أَغْصِرُ خَمْراً﴾ أوجز من أَرَأَيْتِ أَغْصِرُ عَباً أو ثمراً أو تفاحاً ، ليصير خَمْراً^(١).

ويحتمل أن يكون قوله "خَمْراً" من قبيل الحقيقة ، فالخمر بلغه عمان اسم للعنب ، وفي قراءة ابن مسعود - رضي الله عنه - "أعصر عباً" ويكون المراد من العنب هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكهياً ، لكبر حجمه ، واكتناز شحمه ، وقلة مائه ، ولكل منهما أصناف^(٢).

ويحتمل أن يكون قوله "خَمْراً" من قبيل الإيجاز بالحذف ، حيث حذف المضاف وناب المضاف إليه منابه ، والتقدير: عنب خمر.

ولذا يقول الإمام "الفخر الرازي" عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتِ أَغْصِرُ خَمْراً﴾ كيف يعقل عصر الخمر؟ الجواب فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أي العنب الذي يكون عصره خَمْراً ، فحذف المضاف.

الثاني: أن العرب تسمى الشيء باسم ما يؤول إليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس.
والثالث: قال أبو صالح: أهل عمان يسمون العنب بالخمر ، فوقعَت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها. قال الضحاك: نزل القرآن بالسنة جميع العرب^(٣).

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية: ٣٨٠.

(٢) تفسير المنار: ٢٥٠/١٢.

(٣) التفسير الكبير: ١٨/١٣٤. وينظر تفسير القرطبي: ٩/١٨٩ وأبي السعود: ٤/٢٧٥.

وقدم المسند إليه "ضمير المتكلم" في "إني" على خبره الفعلي "أراني أغصِرُ خَمْرًا" وذلك لدلالة على أهمية الخبر به والاعتناء بشأنه ، وهو أمر رؤياه.

ولما أخبر القرآن قصة أحدهما وهو الساقى ، أتبع ذلك بذكر الآخر فقال: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَمْرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وعرف "الآخر" بلام العهد الكنائي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ ،

وأكدت الجملة بأكثر من مؤكد في قولهما: ﴿إِنِّي أَمْرَانِي أَمْرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَمْرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ بـ "إن" واسمية الجملة ، وذلك لتوكيد الخبر وبيان تحققهما مما يقولانه.

وعبر بالمضارع في قوله: "أراني" عن الماضي "رأيتني" وذلك لاستحضار الصورة الماضية ، وكأنها واقعة مشاهدة له ، مما يدل على تأكيد ما يقوله وتحقيقه منه.

وقدم الظرف "فَوْقَ رَأْسِي" على الخبر "خُبْرًا" للاهتمام به والتشويق إلى الخبر ، ليتمكن في النفس عند وروده أيما تمكن.

ونكر قوله: "خُبْرًا" للتكثير والتعظيم ، وهذا لفظ وحيد في القرآن ^(١) أخذ منه أهل التفسير أن هذا الفتى كان خبازاً في قصر الملك ^(٢).

وقوله: ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي تنهش منه ، وهذه الجملة في محل نصب صفة لقوله: "خُبْرًا" ، ويحتمل أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وفصل بينها وما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فالجملة الأولى وهي قوله: ﴿إِنِّي أَمْرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ مثيرة لسؤال ، فكان سائلاً قال : لماذا تحمل فوق

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٧٨.

(٢) تفسير الطبري: ٢١٤/١٢ ، التفسير الكبير: ١٣٤/١٨.

رأسك الخبز؟ وتصلح هذه الجملة وهي قوله: ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ لتكون جواباً عن هذا السؤال.

واللام في "الطير" للعهد الذهني ، فالمراد فرد من أفراد الطير غير معين ، وهذا يتطابق مع الغرض المذكور ، فالمقصود أنه وقع أكل ، وكان الأكل من طير ، إذ ليس الغرض تحديد عدد أو نوع.

وقدم المسند إليه "ضمير المتكلم" في قوله: "إني" على خبره الفعلي وهو قوله: ﴿أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ للدلالة على أهمية المخبر به ، والاعتناء بشأنه ، وهو أمر رؤياه.

وقوله: ﴿بَنَيْنَا تَأْوِيلَهُ﴾ الأمر في قوله: "بنينا" المراد به: الالتماس فهما يلتزمان من يوسف عليه السلام أَنْ يُؤَوَّلَ لهما رؤياهما ، وقوله: "تأويله" أي: قال له كل واحد منهما: نبني تأويل ما رأيت ، أي: بتفسيره الذي يتول إليه في الخارج إذا كان حقاً لا من أضغاث الأحلام ، ويصح إعادة الضمير المفرد - في قوله "تأويله" - على الكثير كاسم الإشارة - ذلك - بمعنى المذكور أو ما ذكر منه ، ومنه قول الراجز:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجسم توليع البهق

أي: كان ذلك^(١).

"والسر في المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رئي ، أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض، لحال من أحواله ، فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في

(١) تفسير المنار: ٢٥١/١٢.

الكلام .. هذا إذا قالاه معاً أو قاله أحدهما من جهتهما معاً ، وأما ما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه ، فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ، ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع ، بل عبارة كل منهما: نبئني بتأويله. مستفسراً لما رآه ، وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١) ، فإنهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم في زمانه بصيغة مفردة خاصة به^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا نُرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لعرض رؤيائهما على يوسف عليه السلام ليفسرها لهما. وفي كونه " مِنَ الْمُحْسِنِينَ " خمسة أقوال:

أحدهما: أنه كان يعود المرضى ، ويداويهم ، ويعزى الحزين.

والثاني: إنا نراك محسناً إن أنبأتنا بتأويله.

والثالث: إنا نراك من العالمين ، قد أحسنت العلم .. فعلى هذا يكون مفعول الإحسان محذوفاً [ففيها إيجاز بحذف المفعول].

والرابع: إنا نراك ممن يحسن التأويل.

والخامس: إنا نراك محسناً إلى نفسك بلزومك طاعة الله^(٣).

ولا مانع أن يكون المراد كل ما سبق ، فقد كان يوسف عليه السلام محسناً إلى نفسه بلزومه طاعة الله تعالى ، ويعلمه وحكمته وتأويل الرؤيا، ومحسناً إلى غيره بعودته المريض ، وتعزيته الحزين ، ومساعدته المحتاج ولذا حذف المفعول لإفادة العموم والشمول.

^(١) المؤمنون: ٥١.

^(٢) تفسير أبي السعود: ٤/٢٧٦، ٢٧٥.

^(٣) زاد المسير: ٤/٣٢٤، ٢٢٣.

وأكدت الجملة بـ "إن" واسمية الجملة لتوكيد الخبر، وبيان أهميته، وكذا
 لمراعاة مقام الطلب في الجملة الأولى " نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ " فمقام الأمر تحتاج النفس فيه
 إلى معرفة العلة من أمرها ، وهنا يحسن توكيد الجملة التعليلية. وقدم المسند إليه
 " ضمير المتكلم " إنا " على خبره الفعلي " تَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " لإفادة تقوية الأمر
 وتوكيده وأهميته والاعتناء بشأنه فأحسانه عندهم من المترلة والفضل بمكان لا يدانيه
 أحد.

المبحث الرابع

رؤيا ملك مصر

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي لَأَن كُنْتُ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴾^{*}
 قَالُوا أَضْغَاتٌ أَلْخَلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَلْخَلَامِ بِكَالِينَ^{*} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَنْرَسِلُون^{*} يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ يوسف ٤٣-٤٦ .

المعنى العام:

لما دنا فرج يوسف عليه السلام وخروجه من السجن رأى ملك مصر رؤيا عجيبة هالته وأفزعته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجت من البحر ، ثم خرج عقبن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال ، فابتلعت العجاف السمان ، فدخلن في بطونهن ، ولم ير منهن شيئا ، ولم يتبين على العجاف منها شيء ، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، ولم يبق من خضرها شيء ، فجمع عليه قومه ليعبروا له رؤياه ، فأخبروه بأنها أخلاط أحلام ، وليس لديهم علم بها ، فما كان من ساقى الملك - وهو أحد الفتنين الذي بشره يوسف عليه السلام بنجاته حينما كان معه في السجن - إلا أن دهم على أن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا ، فطلب منهم أن يرسلوه إليه، فجاء يوسف عليه السلام فقص عليه رؤيا الملك ليعبرها له، فاعلم أهل مصر تأويلها، ويعلموا منزلة عليه السلام في العلم^(١).

(١) ينظر: الكشاف : ٣٢٢/٢ . والقرطبي: ١٩٨/٩ .

"ولما بطل هذا السبب الذي أمر به يوسف عليه السلام وهو تذكير الساقى به ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ - أثار الله - سبحانه - سبباً آخر ينفذ به ما أراد له" ^(١) فقد كانت هذه الرؤيا التي رآها الملك مما قدر الله - تعالى - أن تكون سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَمِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ وصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، والتعريف في "الملك" للعهد ، وهو حاكم مصر "الريان بن الوليد" وسماه القرآن ملكاً ولم يسمه فرعون لأنه كان من غير المصريين ، وقد ثبت في تاريخ مصر القديمة أن المصريين كانوا يلقبون "الحاكم" إذا كان منهم بـ "فرعون" ويلقبونه بـ "الملك" إذا كان من غيرهم ، وسيطر عليهم" ^(٢) وفي هذا تأكيد على أن القرآن من عند الله أنزله على نبيه محمد ﷺ النبي الأمي ، فمن أين له هذا الفرق الدقيق بين الملك وفرعون؟

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَمِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ﴾ أكد الجملة بأكثر من مؤكد "إن" واسمية الجملة وذلك لتأكيد الخبر ، وتحقيق الانكشاف لدى الرائي ، وتبته مما يقول ، أضف إلى ذلك أن الرؤيا غريبة مما تعجب لها النفوس حتى تكاد تنكرها ، وتلاحظ هنا من دلائل الانكشاف والتبث تحديد العدد "سبع" والنوع "بقرات" و"سبلات" والوصف "سمان" ، وعجاف ، وخضر ، وبابسات" والحدث "يأكلهن" ^(٣).

(١) نظم الدرر: ٤٦/٤.

(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف: ١١٦.

(٣) ينظر تفسير أبي السعود: ٢٨٠/٤ ، والبحر المحيط: ٣١٢/٥.

وعبر بالمضارع "أرى" عن الماضي "رأيت" لاستحضار الصورة التي كان عليها الفعل في الخيال كأنها واقعة عياناً.

والتكثير في "سبع بقرات سمان" للتفخيم والتعظيم من شأنهن.

والتعبير بالمضارع "يأكلهن" عن الماضي "أكلن" لقصد استحضار الصورة في الخيال والتعجب من شأنها ، وللإشارة إلى معنى التجدد فيها وقتاً بعد وقت.

وقوله: "عجاف" جمع عجفاء ، والعجف: الهزال الذي ليس بعده سمانة^(١).

وبين قوله: "سمان وعجاف" طباق ، وكذا بين قوله "خضر وبابسات" وقد أبان الطباق عن مدى تناقض هذه الرؤيا التي أزعجت الملك وأفرعته ، فطفق يبحث لها عن تأويل وتعبير.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ خطاب للأشراف من العلماء والحكماء بأن يعبروا ويبينوا هذه الرؤيا ، وما تقول إليه من العاقبة ، والتعبير بالإفشاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه.

والملاء: هم على القوم وأشرافهم تمتلئ عند رؤيتهم العيون رواء ، وتكتسي النفوس جلالاً وبهاء^(٢).

والتعريف بالإضافة في قوله "رؤياي" يفيد التفخيم والتعظيم من شأن رؤياه ، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: تعلمون عبارة جنس الرؤيا علماً مستمراً ، وهي الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الأنفسية الواقعة في الخارج. من العبور وهو التجاوزة تقول:

(١) لسان العرب: "عجف".

(٢) ينظر تفسير أبي السعود: ٢٨٠/٤ ، والمفردات: "ملاء".

عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه: أولتها أي: ذكرت مآلها ، وعبرت الرؤيا عبارة: أثبت من عبرتها تعبيراً^(١).

ولصعوبة هذه الرؤيا وخفاء تأويلها إلا على من أتى حظاً من النبوة عبر بالشرط "إن" للاستبعاد والشك في تأويل المآل لها.

وقدم الجار والمجرور " للرؤيا " على عامله "تعبرون" للاهتمام بأمر رؤياه ، ولمراعاة الفاصلة.

واللام في قوله: " للرؤيا " إما أن تكون للبيان كقوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾^(٢) وإما أن تدخل لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القوة [وعلى هذا تكون اللام للتقوية] ويجوز أن يكون "لرؤيا" خبر كان ، كما تقول: كان فلان لهذا الأمر ، إذا كان مستقلاً به متمكناً منه. و" تَعْبُرُونَ " خبر آخر ، أو حال وأن يضمن " تَعْبُرُونَ " معنى فعل يتعدي باللام كأنه قيل: إن كنتم تندبون لعبارة الرؤيا^(٣).

وجمع بين الماضي "كنتم" والمستقبل "تَعْبُرُونَ" للدلالة على استمرار تعبيرهم للرؤى وقوله: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ استئناف مبني على سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا للملك؟ فقليل: قالوا: هي أضغاث أحلام ..

(١) تفسير أبي السعود: ٢٨١/٤ ، وينظر المفردات : "عبر".

(٢) يوسف : ٢٠.

(٣) الكشف : ٣٢٣/٢.

أو ما تقوله أضغات أحلام ، ففيها إيجاز بحذف المسند إليه ، لتلا تسند أضغات الأحلام إلى الملك رفعة لشأنه ، وتزيهاً له.

"والأضغات: وأحدها ضغت مكسورة ، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تتراد جماعات تجمع من الرؤيا كما يجمع الحشيش ، فيقال: ضغت أي: ملء الكف منه... وقال ابن قتيبة: أضغات أحلام أي: أخلاط مثل أضغات النبات يجمعها الرجل فيكون فيها ضروب مختلفة." (١)

والأصل: أحلام كالأضغات ، حيث شبه اختلاط الأحلام ، وما مر به الملك من رؤيته لأمر محبوب وأخرى مكروهة سيئة باختلاط الحشيش المجموع من أماكن مختلفة ، وأصناف عدة ، فكل واحد منها غير ملائم للآخر ، فهو تشبيه مؤكد ، من إضافة المشبه به للمشبه.

وقد ذكر الإمام "الزمخشري" أن هذا الأسلوب من قبيل الاستعارة حيث قال: "أصل الأضغات: ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد: ضغت فاستعيرت لذلك" (٢).

كما ذكر "الشريف الرضي" - رحمه الله - أنه من قبيل المجاز ، حيث قال: وهذا أبلغ استعارة ، وأحسن عبارة ، لأن أحد الأضغات: ضغت. وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، كالخزعة وما يجري مجراها ، فشبه - سبحانه -

(١) ينظر زاد المسير: ٢٣٠/٤.

(٢) الكشف: ٣٢٤/٢.

اختلاط الأحلام ، وما مر به الإنسان من المحبوب والمكروه ، والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخفاف عدة ، وأصناف كثيرة^(١).

وقد دارت مناقشات كثيرة حول صحة إطلاق الإمام الزمخشري لفظ الاستعارة على هذا الأسلوب ، فقد أطل الإمام "الشهاب" في ذلك ، وقال: إن تأويل ذلك على وجهين:

الأول: أنه يريد أن حقيقة الأضغاث: اختلاط النبات ، فشبه به التخاليط والأباطيل مطلقاً ، سواء كانت أحلاماً أو غيرها ... فطرفا الاستعارة أخلاط النبات والأباطيل الملققات ، فالأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما ، فلا يضيره ذكرهما.

والثاني: أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة، فهي أجزاء لا عينها، فالمستعار منه حزم النبات ، والمستعار له أجزاء الرؤيا. وهذا كله إذا استعرت الورد للنخلة ثم قلت: شمت ورد هند مثلاً ، فلا يقال: إنه ذكر فيه الطرفان^(٢).

ولعل هذه الوجوه لا تخلو من الغموض والتكلف ، ويمكن جعلها من قبيل التشبيه المؤكد ، فيكون ذلك أوضح وأيسر^(٣) ، ولعل إطلاق لفظ الاستعارة من الإمام "الزمخشري" فيه تسامح في استعمال المصطلح.

وجمعوا "أضغاث أحلام" مع أنها رؤيا واحدة وذلك للمبالغة في وصفها بالبطلان أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان ، والسبع العجاف ،

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٧١. والأخفاف: جمع خفيف وهو كل مبوط وارتقاء في سفح

الجلل، أو ما ارتفع عن مسيل الماء.

(٢) حاشية الشهاب: ١٨١/٥.

(٣) أشار إلى ذلك الألوسي في تفسيره: ٢٥١/١٢ ، وكذا في روح البيان: ٢٦٧/٤.

والسنابل السبع الخضر ، والأخر اليابسات ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا^(١) . وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها بعالمين لا لأن لها تأويلاً ، ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، ويجوز أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا بنحارير في تأويل الأحلام مع أن لها تأويلاً^(٢) وهذا الأسلوب يفيد تأكيد عدم علمهم بالتأويل ، واختصاصهم بذلك دون غيرهم ، فهم قد نفوا علم التأويل عن أنفسهم خاصة مع اعترافهم بأن لها تأويلاً عند غيرهم .

ووضع الظاهر " الأحلام " موضع ضميره فلم يقولوا " ما نحن بتأويلها بعالمين " وذلك لقصد تمكين عدم علمهم ما لا تأويل له في ذهن الملك ، وحتى يحى ذلك من صدره لكيلا يشغل به .

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي: بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه ، وأعرض على الملأ تأويلها ، تذكر الناجي يوسف عليه السلام ، وتأويله رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك^(٣) وفي تعريف المسند إليه "الذي" بالموصلية زيادة تقرير صدق يوسف عليه السلام فهو الذي أخبر الساقى بنجاته عندما أول له رؤياه ، وطلب منه أن يذكره عند ربه ، فنسي طلبه وتذكره بعد مدة طويلة .

(١) ينظر فتح القدير: ٣٠/٣ ، والكشاف: ٣٢٤/٢ .

(٢) ينظر الكشاف: ٣٢٤/٢ ، وتفسير أبي السعود: ٢٨١/٤ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

ووصل بين هذه الجملة وما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، وقوله : ﴿وَأَذْكُرُ بَعْدَ أَمَةٍ﴾ جملة معترضة بين القول "قَالَ" ومقول القول "أَنَا أُبَيِّنُكُمْ" وذلك لتبنيه المخاطب على طول المدة التي قضاها يوسف عليه السلام في السجن بعد ما طلب من الساقى ذكره عند الملك ، حيث أنسى الشيطان الساقى طلب يوسف عليه السلام فندم على تقصيره في حق من أحسن إليه بتأويل رؤياه ، فما أن رأى الملك يقص رؤياه ، وعجز الملاء عن تعبيرها له ، سارع بالتكفير عن تقصيره في حق يوسف عليه السلام وتمنى لو فاز بمهمة إرساله إليه ، لأنه هو الذي عنده علم الرؤيا ، وليحظى بثقة الملك ، والاعتناء به ، فقال : ﴿أَنَا أُبَيِّنُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَمْرٌ سَلُونِ﴾ وفي قوله "أُبَيِّنُكُمْ" مجاز عقلي ، علاقته السببية ، حيث أسند فعل الإنباء إلى نفسه مع أن المنبى هو يوسف عليه السلام ، وذلك لأنه سبب البيان والتوضيح ، وفي هذا بيان لأهمية الدور الذي يقوم به في كشف وتوضيح هذه الرؤيا التي عجز عن تعبيرها ، وما تؤول إليه الأشراف من العلماء والحكماء .

وقدم المسند إليه "أنا" على خبره الفعل "أُبَيِّنُكُمْ" لإفادة قصر بيان تأويل الرؤيا عليه ، فلن تتضح إلا من خلاله ، وفي ذلك يقول الإمام "عبد القاهر الجرجاني" : "إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ، ثم بنيت الفعل عليه... تريد أن تدعى الانفراد بذلك ، والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه..."^(١) ويحتمل أن يكون المراد من تقديم المسند إليه على خبره الفعل تقوية الحكم وتوكيده ، وذلك لأن الكلام خرج مخرج الوعد والضمان ، والسامع قد

(١) دلائل الإعجاز: ١٢٨.

يعتريه الشك في أمر تتكفل به وتعهده إياد، فإذا ما جاء الكلام مؤكداً بالتقديم كان أوقع في النفس مما يجعله مطمئناً إلى ذلك ، والملك أراد أن يفسر له الرؤيا التي رآها ، فضمن له الذي نجا من السجن ممن كان مع سيدنا يوسف عليه السلام فأخرج الكلام مخرج التوكيد ضماناً للوعد الذي قاله. وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "إن من شأن من تعده وتضمن له ، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به ، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد..."^(١).

وقوله: ﴿ فَأَرْسَلُونِ ﴾ أمر خرج عن معناه الحقيقي والمراد به الالتماس ، فالساقى يلتمس من الملك ومن معه إرساله ليأتي يوسف عليه السلام فيؤول لهم رؤيا الملك ، ويحتمل أن يكون الخطاب للملك وحده تعظيماً له.

وفيه إيجاز بحذف مفعول الفعل "أرسل" وذلك للإسراع والرغبة في إرساله قبل أن يسبقه أحد ، وكذا مراعاة الفاصلة.

وفي قوله ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إيجاز بحذف أداة النداء ، وحذف أكثر من جملة ، والتقدير: فأرسل إلى يوسف ، فاتاه ، فقال يا يوسف .. وذلك للإشعار بمدى سرعة الساقى في إتيان يوسف عليه السلام ولضيق المقام عن الإطالة ، فالملك يرغب في سرعة تأويل رؤياه ، لما أصابه من الهم والكرب لأجلها ، وكان الساقى لو قال "يا يوسف" لفوت على نفسه فرصة السبق إلى يوسف عليه السلام وناداه مناداة المؤمن المصدق المعتذر عن تقصيره في حقه ، حيث ناداه بالزرم الصفات بإيمانه ، ناداه بـ "

(١) المرجع السابق: ١٣٤ وينظر التقديم والتأخير في القرآن الكريم: ٧٠.

الصديق" "ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده ، وذاق أحواله وجربها لكونه
بصدد اغتنام آثاره ، واقتباس أنواره ، فهو من باب براعة الاستهلال" (١).

وقوله: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ
خُضْرِ وَأَخْضَرٍ يَابَسَاتٍ ﴾ الأمر فيه خرج عن معناه الحقيقي ، والمراد به النصح
والمشورة والإرشاد ، فهو يلتمس منه ويسترشده في شأن هذه الرؤيا ، "وحيث
عابن علو رتبته ^{عليه السلام} عبر عن ذلك بالإفتاء ، ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً
"نبئنا بتأويله". وفي قوله " أفْتِنَا " مع أنه المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له
بل لغيره ممن له ملازمة بأمور العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير" (٢).

ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقاً في نقلها
، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً ، وليجيء تأويلها ملاصقاً في
السياق لذكرها" (٣).

ويلاحظ الإطناب في أسلوب الساقى وهو يحكي رؤيا الملك ، حيث الألفاظ
بنصها كاملة ، بينما أوجز في خطابه للملك وملائته حيث قال: " أَنَا أُنبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
" وقد أصاب فيهما ، ففي حالة خطابه للملك ومن معه المقام يتطلب الإسراع في
تأويل الرؤيا؛ ليزيل كرب الملك وهمه ، ولتزيد ثقة الملك به ، والاعتناء بشأنه. وفي
حالة خطابه ليوسف ^{عليه السلام} المقام يستدعي قص الرؤيا كما هي حتى يتمكن سيدنا
يوسف من تأويلها ، لأن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ.

(١) تفسير أبي السعود: ٢٨٢/٤ .

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) في ظلال القرآن: ١٩٩٣/٤ .

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده ، أو إلى أهل البلد إن كان السجن في الخارج ، فأنبئهم بذلك فيعملونه ، ويعلمون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتخلص منه . وبذلك يكون التعريف في "الناس" بـ "أل" للعهد الكنائي ، فالملك وملؤه هم الذين جرى لهم ذكر كنائي سابق .

وفي تكرير "لعل" قولان:

أحدهما: أن "لعل" الأولى متعلقة بالإفتاء ، والثانية مبينة على الرجوع ، وكلاهما بمعنى كي .

والثاني: أن الأولى بمعنى "عسي" والثانية بمعنى "كي" فأعيدت لاختلاف المعنيين .
أي: عسي أن يرجع إلى الملك ومن معه كي يعلموا تأويل الرؤيا، لو قدر الله - تعالى - أن يعود به إليهم ، فربما لم يعلموه لانقضاء أجله أو لعدم فهمهم أو لعدم اعتمادهم . ويترتب بالطبع أن يعلموا فضل وعلم ومكانة يوسف عليه السلام فيكون في ذلك الفرج والخلاص والتمكين له في الأرض^(١) .

(١) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٣١٤/٥ ، وتفسير أبي السعود: ٢٨٢/٤ . وروح المعاني: ٢٥٤/١٢ وزاد

المسير: ٢٣٢/٤ .

المبحث الخامس

رؤيا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِنِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَبَّحْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

الصفات: ٩٩-١٠٥.

المعنى العام:

لما ضاق سيدنا إبراهيم عليه السلام بقومه هجرهم ، وأخبرهم أنه ذاهب إلى حيث أمره ربه ، فإنه سيهديه إلى الجنة والخلاص من نارهم التي أعدوها لحرقه ، ولما هاجر وقدم إلى الأرض المقدسة سأل ربه الولد ، فبشره الله بولد يبلغ ويكون حليماً ، فلما بلغ معه السعي رأى رؤيا أنه يذبحه - ورؤيا الأنبياء وحي - وقد رأى هذه الرؤيا مرة بعد مرة فهم بذبحه ، وعرض الأمر عليه ليعلم أيجز أم يصبر ، فيصبره إن جزع ، ويأمن عليه الذلل إن صبر وسلم أمره الله ، فما كان منه إلا الانقياد والتسليم لأمر الله ورسوله ، وصبر على بلاء الله - تعالى - فأضجعه أبوه على جبينه وذلك على الأرض لتنفيذ وتحقيق رؤياه ، فكان النداء من الله ، أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وحققته فعلاً ، إنا كذلك نجزي المحسنين "باختيارهم لمثل هذا البلاء ، ونجزهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ، ونجزهم بإقذارهم وإصبارهم على الأداء ، ونجزهم كذلك باستحقاق الجزاء" (١).

(١) الظلال: ٢٩٩٦/٥.

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: إني مهاجر إلى حيث أمرني ربي لأتجرد لعبادته ، ووصل هذه الجملة بما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، فقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ، ونجاه من كيدهم أجمعين ، بأن أمره بالهجرة إلى بلاد الشام.

وأكد قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ بأكثر من مؤكد ، "إن" واسمية الجملة وذلك لتأكيد هجرته إلى الله سبحانه ، تاركاً أهله وبيته ووطنه ، متخففاً من كل شيء يربطه بهذه الأرض الظالم أهلها ، مسلماً أمره كله لله.

وفصل بين هذه الجملة وقوله: ﴿سَيِّدِينَ﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتصال، فهذه الجملة بينت علة ذهابه إلى ربه وهجرته ، وذلك لهدايته "وبت القول بذلك لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، وللبناء على عاداته - تعالى - معه ، ولذلك أتى بصيغة التوقع" ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ، ويؤنسني في الغربة"^(١).

وفي قوله "رب" إيجاز يحذف حرف النداء ، وهذا يومئ إلى مدى قرب إبراهيم عليه السلام من ربه ومناجاته له وتأدبه معه "والنداء لون من الخطاب ، ولا يكون إلا في أمر مهم يستدعى طلب الإقبال"^(٢).

وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوى كالأمر والنهي والاستفهام ، وفي هذه الآية عقب النداء الأمر

(١) تفسير أبي السعود: ١٩٩/٧.

(٢) في البلاغة القرآنية: ١٣٩.

والأمر في قوله: ﴿هَبْ لِي﴾ مراد به الدعاء ، فإبراهيم عليه السلام يسألي ربه ويسأله الذرية المؤمنة ، والخلف الصالح ، لأهمية هذا الأمر عنده ليؤنسه ويزيل وحشته . وعقب إخباره بالذهاب إلى ربه ، والهجرة من بيئة قومه بالنداء والأمر ، لأنه استشعر قلة أهله ، وعقم امرأته ، وساور ذلك الخاطر في نفسه عند إزماح الرحيل ، لأن الشعور بقلّة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى ، لأن المرء إذا كان بين قومه كان بعض السلو بوجود قرابته وأصدقائه^(١) .

وحذف المفعول لدلالة الفعل عليه ، حيث غلب في القرآن الكريم مجيء الفعل "وهب" مراداً به الولد ، ولذا يقول صاحب الكشاف: "لفظ الهبة غلب في الولد" ، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٢) . وقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٣) ، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾^(٤) ،^(٥)

"وصفه بأنه من الصالحين؛ لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً ، فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء ، ومن صلاحهم برهم بوالديهم"^(٦) .

وقد استجاب الله دعاءه على الفور ، ولذا جاء العطف بـ "الفاء" التي تفيد الترتيب والتعقيب وذلك في قوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِقَلَامٍ حَكِيمٍ﴾ "لأن البشارة بإسماعيل عليه السلام كانت عقب دعاء إبراهيم عليه السلام أن يهب الله له من الصالحين"^(٧) .

(١) ينظر التحرير والتنوير: ١٤٨/٢٣ .

(٢) مريم: ٥٣ .

(٣) الأنعام: ٨٤ .

(٤) الأنبياء: ٩٥ .

(٥) الزمخشري: ٣٤٧/٣ .

(٦) التحرير والتنوير: ١٤٨/٣ .

(٧) المرجع السابق نفسه .

ولقد جمع الله في هذه الآية بشارات ثلاث ، بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ سَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .
وفي قوله: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ ﴾ إيجاز بالحذف لترتبه على محذوف ، والتقدير:

فاستجبنا له فبشرناه ، وذلك للدلالة على سرعة بشارته بالولد ، وتحقيق وقوعها .

وفي قوله "غلام حليم" مجاز مرسل ، علاقته اعتبار ما سيكون ، ووصف الغلام بصفة "الحلم" ، وكذا وصعد في آية أخرى بصفة "العلم" ^(١) وذلك حين مولده ، وهو لا يكون كذلك إلا بعد حين ، والغرض من هذا المجاز في الآيتين طمأنة إبراهيم عليه السلام بأن الغلام سيلبغ مبلغ الرجال . وأنه سيؤتي الحكمة ، ويكون عليمًا حليماً ، وتلك بشارة أخرى كان إبراهيم عليه السلام في حاجة إليها ، لأن شأن من يولد له في الكبر أن يظل مشغولاً على من ولده ، خائفاً على مصيره من بعده ^(٢) .

ونكر "غلام" للتعظيم ووصفه بـ "حليم" لزيادة تكريمه وتعظيمه وعلو شأنه .
وقوله " فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ " أي: بلغ الحد الذي يسعى فيه مع أبيه في أعماله وقضاء حوائجه ، وهو كناية عن قوته وشدة نشاطه .

والفاء فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلاً على شهادة الحال ، وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة ، والتقدير: فوهبناه له فنشأ ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه .

وقوله: "معه" بيان لسؤال مقدر فكان سائلاً قال: مع من بلغ السعي؟ ف قيل: معه أي: مع أبيه ، لأنه أكمل في الرفق والاستصلاح له ، فلا يستسعيه قبل أوانه ،

(١) في قوله : " وبشروه بغلام عليم " الذاريات : ٢٨

(٢) ينظر الكشاف: ٣/٣٤٧ ومن بلاغة النظم القرآني. ٣٨٦

أو لأنه استوهبه لذلك.. وفي هذا يقول الإمام "الزمخشري" - رحمه الله - : "فإن قلت: "معه" بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بـ "بلغ" ، أو بـ "السعي" أو بمحذوف. فلا يصح تعلقه بـ "بلغ" ، لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي ، ولا بـ "السعي" ، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقي أن يكون بياناً ، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي قيل: مع من؟ فقال: مع أبيه^(١).

وقوله: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ التصغير في "بُنَيَّ" لصغر سن إسماعيل عليه السلام ولدافع الشفقة والألفة والمحبة ، ولعلو منزلة إسماعيل عليه السلام وبعد مكانته استخدم أداة النداء "يا" الموضوع للبعيد مع أنه قريب منه.

وأكدت الجملة بأكثر من مؤكد بـ "إن" واسمية الجملة لتأكيد الخبر وتقويته ، ولإزالة ما قد يعلق في ذهن إسماعيل عليه السلام من إنكار لغرابة الخبر وهولته وشدته ، والتعبير بالمضارع "أرى ، أذبح" عن الماضي "رأيت ، ذبحت" لاستحضار تلك الصورة العجيبة والغريبة في الخيال ، وللإشارة إلى تكرار تلك الرؤيا وتجديدها وقتاً بعد وقت ، فقد قيل: إنه رأى ليلة التروية كأن قاذلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا أو من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم "التروية" ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سمي يوم "عرفة" ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهم بنحره ، فسمى يوم "النحر"^(٢).

(١) الكشف: ٣/٣٤٧ وينظر تفسير أبي السعود: ١٩٩/٧.

(٢) المرجع السابق نفسه .

والتعبير بقوله " في المنام " يشير إلى مدى فضل الله - سبحانه - على سيدنا إبراهيم ، وتكريمه له ، والحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة - كما يقول الإمام الرازي في تفسيره ، بياناً من وجهين:

الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة ، بل شيئاً فشيئاً. الثاني: أن الله - تعالى - جعل رؤيا الأنبياء - عليهم السلام - حقاً ... والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة ، وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال^(١).

وأكد الجملة الثانية "أني أذبحك" لإزالة ما قد يعلق في ذهن إسماعيل عليه السلام من إنكار لغرابة هذه الرؤيا.

ويدرك سيدنا إبراهيم أنما إشارة من ربه بالتضحية ، فلا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة والتسليم لله رب العالمين ، إنما إشارة وليست وحياً صريحاً وهذا يكفي ليلهي ويستجيب ، ودون أن يعترض ، ولكنه لا يلهي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب... والأمر شاق - ما في ذلك شك - فهو لا يطلب منه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب منه أن يكلفه بأمر تنتهي به حياته ، إنما يطلب منه أن يتولى هو بيده.. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه .. وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا

(١) التفسير الكبير: ٢٥٢/١٥.

التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه! ^(١) وقوله: "فَانظُرْ مَاذَا تَرَى" الفاء تفرعية على ما قرره من شأن الرؤيا ، والأمر "انظر" للتوجيه والتثيت ، لأن الإجابة العاجلة قد يعقبها خلل. وإشارة "ماذا" للدلالة على خطورة الأمر وشدته ، وإحكام الرأي فيه.

والاستفهام حقيقي لا اختلاف في بيان المراد منه ، إبراهيم عليه السلام أراد أن يعرف موقف ولده من هذا الأمر ، أيطيع أم يعصي؟ فشاوره فيه وهو أمر محتوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله - تعالى - فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهن ، ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله ، وكان الإيمان الذي حمل أباه على امتثال الأمر قد حمل ولده على الوعد بالطاعة والامتثال ^(٢).

وقد ترك لإسماعيل عليه السلام الفرصة ليتأمل ويقرر مصيره ، ولتكون التربية في الشورى، وفي مشاورة إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل في أمر ذبحه ما يوحى برجاجة عقله ، ورصانة فكره ، وفسحة صدره ، وقوة إيمانه كل ذلك جعله يرتقى إلى الأفق الذي ارتقى إليه أبوه من قبل من تذوق حلاوة التسليم ، ولذة التطوع والرضى والطمأنينة لقضاء الله .

وقوله: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ إجابة الواثق المطمئن لقضاء الله ، فشبح الموت لا يزعه ، ولا يفزعه ، ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته. "وابتداء الجواب بالنداء ، واستحضار النادى بوصف الأبوة ، وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن ، والتعبير عن

^(١) ينظر في ظلال القرآن: ٢٩٩٥/٥ بتصرف يسير.

^(٢) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٣/٣٨١ ، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٢٠٠.

الذبح بالموصل وهو " مَا تُؤْمَرُ " دون أن يقول: اذبحني ، يفيد وحده إيماء إلى السبب الذي جعل جوابه امتثالاً لذبحه.

وحذف المتعلق بالفعل "تؤمر" لظهور تقديره: أي: ما تؤمر به.

وعدل عن أن يقال: اذبحني إلى " أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ " للجمع بين الإذن وتعليقه أي: أذنت لك أن تذبحني، لأن الله أمرك بذلك ، ففيه تصديق أبيه ، وامتثال أمر الله فيه^(١) وهذا يدل على أن لكل كلمة في القرآن مجراً تسبح فيه ، لا يبغي به بديلاً.

وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فهي بمثابة

جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل: ماذا قال ولده حينما علم هذا الخبر من أبيه؟
وتصلح هذه الجملة أن تكون جواباً عنه ، بينت مدى الأدب والتوقير لأبيه ، ومدى الطمأنينة والثوق بوعد الله سبحانه.

وإثارة أداة النداء "يا" الموضوع للبعيد إشارة إلى علو ورفعة إبراهيم عليه السلام في الطاعة والامتثال ، حيث سمح بذبح ابنه الوحيد الذي رزق به في أرذل العمر طاعة وامتثالاً لأمر الله - تعالى - ومن أجل تلك الرفعة وذاك العلو قال: "يا أبت" ، ولم يقل: يا أبي. ومن المعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وصيغة الأمر " أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ " لا تشعر بمجرد الإذن فحسب بل تشعر بمدى ثبات إسماعيل عليه السلام وصره ، وعدم تضجره. وتشعر بمدى تسليمه لقضاء الله ، فلم يطلب من أبيه التفكير أو إعطاء مهلة ، وإنما ثبت وأذعن وفوض نفسه لأبيه لينفذ أمر ربه ، ويصدق بكلماته .

والتعبير بالمضارع "تؤمر" عن الماضي "أمرت" لاستحضار صورة الحدث، والإيماء بالاستمرار والتجدد في الامتثال والطاعة.

(١) التحرير والتنوير: ١٥٢/٢٣.

وقوله: ﴿سَجَدْتُ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: على الذبح أو على قضاء الله - تعالى - وأكد الطاعة هنا بحرف التنفيس "السين" دون "سوف" أي: هو طائع ممتثل ، ولو جرى الذبح ساعة الحوار بينه وبين أبيه. وإيثار أداة الشرط "إن" دون "إذا" في قوله: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" لأن المأمور به مما تجزع منه النفوس جزعاً عظيماً ، وأنه يخشى أن تخور قواه فيجزع ، فاحتاط للأمر بـ "إن" دون "إذا" لما في الأولى من معنى تخلف الجزاء عن الشرط دون الثانية. وهذا من أدب النبوة ، وأخلاق الإيمان الواعي^(١) .

وإيثار لفظ المشيئة للاستعانة على تحقيق الوعد ، وهذا يوحى بلجوء إسماعيل عليه السلام إلى الله - تعالى - عند نزول البلاء .

وقوله: "مِنَ الصَّابِرِينَ" أي: من الذين رسخ قدمهم في الصبر ، وقوة التحمل ، حتى عرفوا به وصار سجية لهم. وهو من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف بـ "صابر" لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به^(٢) وكذا مراعاة الفاصلة.

ويلاحظ من سياق الآيات أن الأمر جد عسير ، ولكنه إشارة من رب العالمين ، وطاعة وتضحية وتسليم من إبراهيم عليه السلام .

ودار حوار بين سيدنا إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- وبدت مشاعر التسليم من هذا الحوار لأمر الله واضحة جلية ، وملامح الطاعة ظاهرة من كليهما ، ثم يخطو هذا المشهد نحو حيز التنفيذ " فَلَمَّا أَسْلَمَا وَلِلَّهِ الْجَبِينِ " وهنا تظهر

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٣٨١/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥٣/٢٣.

حقيقة الإيمان ، ونبل الطاعة ، إنه التسليم لله ثقة به ، وطاعة وطمأنينة له ، ورضاه وتسليماً بقضائه.

والفعل " أسَلَمًا " يحتمل وجهين:

الأول: إن كان بمعنى " استسلما وانقادا لأمر الله تعالى وخضعا له " يكون الفعل لازماً ، وقد حذف متعلقه وهو الجار والمجرور لظهوره من السياق.

الثاني: إن كان بمعنى: سلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ، يكون متعدياً وحذف مفعوله لظهوره من المقام ودلالة المعنى عليه. والحذف ضرب من الإيجاز ^(١) والعطف بـ " الفاء " في قوله : " فلما " تشعر بسرعة مبادرتكما بالامتثال لأمر الله وخضوعهما له.

وقوله: " وتَلَّهَ لِلْجَبِينِ " أصل التل: المكان المرتفع ، والتليل : العتيق ، وتله للجبين: أسقطه على التل ، كقولك : ترّبه أسقطه على التراب ^(٢).

والمعنى: أي: صرعه على شقه فوق جبينه على الأرض ، وهو أحد جانبي الجبهة، وقيل: كبه على وجهه بإشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله - تعالى - ^(٣).

واللام في قوله " لِلْجَبِينِ " بمعنى "على" وإيثارها هنا لبيان كمال الرضى والتسليم وحسن استقبال البلاء ، ولو قيل: وتله على الجبين لأوحى "على" بدلالتها على القهر والاستعلاء بأنه صرعه على الأرض مقهوراً على غير رغبته،

^(١) ينظر المرجع السابق نفسه ، والبحر المحيط: ٣٥٥/٧ والبيضاوي: ٢٩٧/٢ ، وروح المعاني: ١٣٠/٢٣.

^(٢) المفردات: ٧٥ "تل".

^(٣) تفسير أبي السعود: ٢٠٠/٧.

وهذا يتنافى مع الغرض المقصود ، لأنه ~~الذي~~ كان في غاية الطاعة والاستسلام لأمر الله تعالى.

وفي جواب قوله " فَلَمَّا أَسْلَمًا " قولان:

أحدهما: أن جوابه "وناديتاه" والواو للتوكيد.

والثاني: أن الجواب محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وكأن الألفاظ لو اجتمعت لا تفي بما حدث لهما ، وكأنه قال: كان ما كان مما ينطق به الحال ، ولا يحيط به المقال من استبشارهما ، وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلها به على العالمين ، مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك^(١).

والقرآن يصور لنا هذا المشهد بل تلك المشاهد تصويراً حياً يجول الإنسان بخاطره في هذا المشهد الكامل ، وهذه الصورة المتحركة ، يتخيل أمامه أباً وابنه ، يمسك الأب السكين ، والابن مستسلم له مدعن لربه ، ويصرع الابن على جبينه .. فالصورة مليئة بالحركة مفعمة بالخيال .. ، ولتصور الإنسان مدى البهجة والسعادة لنجاة هذا الابن في تلك اللحظة وفي هذا المشهد ، ومدى وصول هذا الابن وذاك الأب إلى تلك الدرجة من الاستسلام والخضوع لله رب العالمين ، ويصور القرآن تلك المشاهد في صورة وجيزة بليغة لتكون عبرة لأولى الألباب.

ويلتفت إبراهيم ~~عليه السلام~~ فإذا بالنداء العلوي من فوق سبع سموات ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهنا الابتلاء قد تم،

(١) ينظر المرجع السابق نفسه، والبحر المحيط: ٣٠٧/٧، والنيل السائر: ٣٦٠/٢، ومن بلاغة القرآن: ١٢٦، والحذف البلاغي في القرآن: ١٢٦.

والامتحان قد وقع ، ونتائجه قد ظهرت ، وغاياته قد تحققت ولم يعد إلا الألم البدني ، والدم المسفوح ، والجسد الذبيح ، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ... ومتى خلصوا له ، واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وحققوا التكليف .. وقد عرف الله - سبحانه - من إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا الرؤيا فعلاً^(١).

وفي قوله: "وناديتاه" مجاز عقلي ، علاقته السببية ، حيث أسنات المناداة إلى ضميره - سبحانه - "نا" لأنه هو الأمر بها ، وفي هذا تكريم وتشريف لنبي الله إبراهيم عليه السلام ، وكذا في إثارة أداة النداء "يا" مما يدل على رفعة وعلو شأنه عند ربه "وفنخم هذا النداء بحرف التفسير "أن" في قوله: "أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ" ^(٢) ، ودخول "قد" على الفعل الماضي "صَدَقْتُ" تفيد تأكيد وتحقيق امتثال إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأمر الله - تعالى - بهدوء وطمأنينة دون كلل أو ملل.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتحويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبعية بعد اليأس ، أي: مثل عظمة ذلك التصديق لنجزي جزاء عظيماً للمحسنين ، أي الكاملين في الإحسان ، وأنت منهم.

ولما تضمن لفظ الجزاء معنى المكافأة ، ومماثلة المجزى عليه عظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مضاف إليه بإشارة البعيد المفيد بعداً اعتبارياً ، وهو الرفعة ، وعظم القدر في الشرف ، والتقدير: إنا نجزي المحسنين جزاء كذلك الإحسان الذي أحسنت به بتصديقك الرؤيا ، مكافأة على مقدار الإحسان ، فإنه بذل أعز الأشياء عليه في طاعة ربه ، فبذل الله إليه من أحسن الخيرات التي بيده تعالى ، فالمشبه

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٩٦.

(٢) نظم الدرر: ٣٢٨/٦.

والمشبه به معقولان إذ ليس واحد منهما بمشاهد ، ولكنهما متخيلان بما يتسع له
 التخيل المعهود عند الحسنيين مما يقتضيه اعتقادهم في وعد الصادق من جزاء القادر
 العظيم^(١)

(١) ينظر الكشاف: ٣/٣٤٨ ، والتحرير والتنوير: ١٥٤/٢٣ .

المبحث السادس

رؤيا النبي ﷺ في الحديبية.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَدْخُلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: ٢٧.

سبب نزول الآية:

كان رسول الله ﷺ رأى في المنام خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمين ، وقد حلقوا رؤوسهم ، وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا ، واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم هذا ، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين [عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن نفيل ، ورفاعة بن الحرث]: والله ما حلقنا ، ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فزلت هذه الآية. وعن مجاهد قال: رأى النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه آمين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، فلما نحر المهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فزلت هذه الآية^(١).

التحليل البلاغي:

قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أكد صدق رسول الله ﷺ في رؤياه بأكثر من مؤكد بـ "اللام" ، و"قد" ، وأسلوب القسم وذلك لأن السلام موطئة لقسم محذوف ، والتقدير: والله لقد صدق ، وذلك للرد على مزاعم وأباطيل وإنكار المنافقين ، وإجابة عن سؤال بعض الصحابة: أين رؤياك يا رسول الله؟ وبيان أن ما رآه النبي ﷺ رؤيا صادقة ، وليست أضغاث أحلام ، فهي كائنة لا محالة إذ هي وحي من الله تعالى.

(١) ينظر لباب النقول في أسباب النزول: ٣٠٥ ، وتفسير أبي السعود: ١١٣/٨.

"ولما كان للنظر إلى الرؤيا اعتباران: أحدهما من جهة الواقع ، وهو غيب عن الصحابة - رضي الله عنهم - والآخر من جهة الإخبار ، وهو مع الرؤيا شهادة بالنسبة إليه - سبحانه وتعالى - عبر بالصدق والحق فقال: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾^(١) .

وعرف المسند إليه لفظ الجلالة "الله" بالعلمية لتفخيم وتعظيم الأمر وتوكيده. "وآثر النظم الكريم التعبير بلفظ الرسالة في المفعول به "رَسُولُهُ" على لفظ النبوة ، للإيماء بوظيفة الرسول ﷺ ألا وهي إبلاغ الرسالة ، وهو في ذلك غني عن الإخبار عما لا يكون أنه يكون ، فكيف إذا كان المخبر رسوله؟"^(٢)

وفي إضافة المفعول "رسول" إلى الضمير الذي يعود على الله - سبحانه - دلالة على أن المقصود به رسوله محمد ﷺ ، وذلك لأن الإرسال قد يكون لغير الله - تعالى -^(٣) والتعريف بالإضافة - أيضاً - يفيد التشريف والتعظيم لهذا الرسول الكريم.

وجاء متعلق الفعل "الرؤيا" منصوباً بترع الخافض ، وهو المسمى بالحذف والإيصال أي: حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بالعمل فيه النصب ، وأصل الكلام: لقد صدق الله رسوله في الرؤيا^(٤) ، والحذف ضرب من الإيجاز، وذلك للتعجيل بالإخبار بالرؤيا الصالحة بشارة للنبي ﷺ وأصحابه.

ولما كانت الرؤيا يطابقها الواقع وصفت بالحق فقال: "بِالْحَقِّ" ، وجاء الجار بـ "الباء" للدلالة على الملابسة ، وهو ظرف مستقر ، وهذا القول "بِالْحَقِّ" صفة

(١) نظم الدرر : ٢١٢/٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الفروق اللغوية : ٣١٩ .

(٤) الكشف : ٥٤٩/٣ .

لمصدر محذوف للتأكيد أي: صدقاً متلبساً بالحق ، ويجوز أن يكون قوله: " بِالْحَقِّ " حالاً من الرؤيا، أي: حال كونها متلبسة بالحق ، وليست من قبيل أضغاث الأحلام^(١).

ويحتمل أن يكون قوله: " بِالْحَقِّ " قسماً بالله ، فإن الحق من أسمائه ، أو قسماً بالحق الذي هو نقيض الباطل ، وقوله " لَتَدْخُلْنَ " جوابه.

أو يكون قوله " لَتَدْخُلْنَ " جواباً لقسم محذوف تقديره: والله لتدخلن المسجد الحرام ، والحق - سبحانه - لا يقسم إلا في الأمور المهمة الجليلة ، وفي ذلك بيان وتأکید لدخول المسجد الحرام ، وأنه وعد مؤكد للمؤمنين ، وأنهم سيفتحون مكة ، وليس المراد المسجد الحرام وحده، بل المقصود مكة وما تشمله ، فأطلق الجزء " الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " على كل مكة، وذلك على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته الجزئية ، لأهمية هذا الجزء وفضله على غيره.

وجاء الوعد بالدخول المشتمل على الأمن، وعدم الخوف مع الخلق والتقصير مؤكداً - أيضاً - لطمأنة نفوس المؤمنين، وبشارة لهم ، وإسكاتاً للمنافقين.

وفصل بين جملة " لَتَدْخُلْنَ " وما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال ، فهي بمثابة بيان لها ، ففي قوله: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إجمال ، وجاء قوله: " لَتَدْخُلْنَ... " تفصيلاً لما أجمل في الجملة السابقة ، ولما كان المسلمون متشوقين إلى سماع كنه وحقيقة هذه الرؤيا، جيء بها في صورة التفصيل بعد الإجمال ، ليرى المعنى في صورتين ، فيتمكن في النفس فضل تمكن ، والعلم إذا وقع بعد تشوق إليه وجذب للانتباه كان له لذة ورسوخ لا تكون بغيره.

^(١) ينظر المرجع السابق نفسه ، مفاتيح الغيب: ١٠٥/١٤ ، وحاشية الشهاب: ٢٩٨/٨ ، وتفسير

أبي السعود: ١٧١/٦.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ جملة اعتراضية يحتمل أن تكون معترضة للتبرك^(١).
 وفيها تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئة الله - عز وجل - لا بقدرية الإنسان ،
 فهو وعد لهم لأجل التعريض بهم ، والإنكار على المعارضين على الرؤيا^(٢).
 ويحتمل أن تكون هذه الجملة معترضة للإشعار بأن بعضهم لا يدخل مكة
 لموت أو غيبة ، فهي كناية عن أن منهم من لا يدخلها ؛ لأن أجله يمنع^(٣).
 وفي ذلك تعليم للعباد بأن يقولوا " إِنْ شَاءَ اللَّهُ " بإسناد كل شيء سيحدث
 في المستقبل إلى مشيئته تعالى.

وجاء التعبير بالاسم في قوله: ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾
 للدلالة على ثبوت الأمن لهم ، أي: لتدخلن المسجد الحرام حال كونكم آمنين ،
 فصفة الأمن ثابتة لهم ، لا يروعوهم الكفار ، فلا خوف عليهم.
 ويصور ما لهم بعد دخولهم آمنين بقوله: ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
 وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون ففيه تقدير محذوف ، أو هو من
 نسبة ما للجزء للكل ، والقرينة أنه لا يجتمع الحلق والتقصير إذ هما مختلفان ، فلا بد
 من نسبة كل منهما لبعض منهما ، فالواو هنا لاجتماع الحلق والتقصير في مجموع
 القوم ، فمنهم من حلق ومنهم من قصر^(٤) ، ففيها مجاز مرسل علاقته العموم ، فقد

(١) الإتيان: ٢٢٣/٣.

(٢) حاشية الشهاب: ٦٨/٨.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٧١/٦.

(٤) حاشية الشهاب: ٦٩/٨.

نسب الخلق الذي سيقع لبعضهم إليهم جميعاً ، ونسب التقصير الذي سيقع لبعضهم إليهم جميعاً ، فأطلق العام وأراد الخاص. وفي ذلك كناية عن تمكّنهم من أداء شعائر الحج والعمرة، وذلك من دلائل استمرار الأمن لهم وثبوته .

وفي قوله "رُءُوسُكُمْ" مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث أطلق المحل وأراد الحال فيه وهو الشعر، وصيغة التفعيل "مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ" تدل على أن فاعل الخلق والتقصير كثير .

وقدم الخلق على التقصير لأنه أولى وأفضل من التقصير ، وأعلى في الثواب، وثنى بالتقصير لبيان جواز الأمرين^(١) .

ولما كان المقام محتاجاً إلى التوكيد جاءت جملة النفي في قوله " لَا تَخَافُونَ " لتؤكد الأمن المدلول عليه باسم الفاعل " آمِنِينَ " .

ونفي الخوف هنا ليس تكراراً للأمن المعبر عنه في قوله: " آمِنِينَ "؛ لأن الأمن ليس شعوراً داخلياً وإنما هو حالة خارجية يرتبط بها شعور داخلي، وهو الطمأنينة داخل نفوس المؤمنين التي استلزمها التعبير باسم الفاعل " آمِنِينَ " . وحذف مفعول الفعل المنفي " لَا تَخَافُونَ " لعموم هذا النفي وشموله لكل ما يمكن أن يوقع الخوف في قلوبهم من عدو وغيره ، وكذا لكمال الأمن بعد الحج ، وذلك لأن بعد الخلق يخرج الإنسان عن الإحرام، فلا يحرم عليه القتال ، وكان أهل مكة يحرم عليهم

(١) ينظر نظم الدرر: ٧/٢١٣ .

قتال من أحرم ، ومن دخل الحرم ، فقال: تدخلون آمنين ، وتحلقون ، وتقصرون ، ويبقى أمنكم بعد خروجكم من الإحرام.

وجملة " لا تَخَافُونَ " يمكن أن تكون حالاً ، أو أن تكون استئنافاً بيانياً ، جواب سؤال مقدر ، وكأن سائلاً سأل: كيف الحال بعد الدخول؟ فكان الجواب: لا تخافون أبداً، وفي هذا دفع لما قد يتوهم من أنه بعد التحلل قد يتعرضون لأذى ، فجاءت هذه العبارة " لا تَخَافُونَ " منزلة لهذا التوهم رافعة له^(١).

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي: بسبب علمه صدق رسوله في رؤياه. والمراد بعلمه - تعالى - العلم الفعلي المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه ، أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً^(٢).

والتعبير بالوصول في قوله: ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ يفيد تفخيم وتعظيم المعلوم، وذلك لما في الوصول من إهام يثرى الخيال، ويوغل في التصوير. وفي قوله: ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ طباق أفاد - أيضاً - تفخيم وتعظيم المعلوم ، وأكسب المعنى حسناً وهماً لا يتم المعنى بدونه.

وقوله: ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي بسبب إحاطة علمه - تعالى - جعل من قبل تحقق رؤيا النبي ﷺ من دخول المسجد الحرام " فَتْحًا قَرِيبًا " وهو كناية عن فتح خير ، وذلك ليقوى المؤمنين به ويشبتهم. ولما كان هذه الفتحة أمراً

(١) صورة من البيان القرآني: ١٥٩.

(٢) ينظر تفسير أبي السعود: ١٧١/٦.

عجيباً أثر التعبير بالفعل "جعل" دون "فتح". وعبر عنه بالماضي "جعل" لتزييل المستقبل منزلة الماضي لتحقيق وقوعه ، أو لأن "جعل" بمعنى "قدر" و "من" يانيه^(١).
 والتكثير في قوله: " فَتَحًا قَرِيبًا " يفيد تفخيم وتعظيم هذا الفتح ، وليسان
 الاهتمام والعناية بهذا الدخول قدّم الجار والمجرور " مِنْ دُونِ ذَلِكَ " على المفعول " فَتَحًا قَرِيبًا " ليقوى قلوب المؤمنين لتأخير الدخول إلى العام المقبل ، حيث جعل لهم
 فتح خبير قبل ذلك.

(١) ينظر التحرير والتنوير: ٢٦/٢٠٠.

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

فقد عشت في رحاب آيات الرؤيا المنامية في القرآن الكريم ، أتدبرها ، وأهل
من معيها ، وأتذوق بلاغتها وإعجاز نظمها ، ولاحظت أنها تشتمل على كثير من
الخصائص واللطائف البلاغية ، وكان منها ما يلي:

- ١- دقة استخدام الصيغة في آيات الرؤيا المنامية - وكذا في جميع
القرآن الكريم - وبديع نظمها ، مما يشيع في نفس السامع ما تحمله من دقة المعاني ،
وخفى الإشارات، ويجعلها ملائمة لسياقها ، مطابقة لما يقتضيه المقام ، وجاءت
موحية معبرة عن المعنى الذي جيئت لأجله.
- ٢- كان لكل كلمة مجزاً تسبح فيه ، وجواً تتناغم فيه ، فلا يحل محلها
غيرها ، فلا يوضع "الحلم" محل "الرؤيا" ، ولا "الرؤيا" محل "الحلم" وغير ذلك.
- ٣- كان من أبرز الخصائص واللطائف البلاغية في آيات الرؤيا المنامية
ظاهرة التوكيد ، فقد جاءت كلها مؤكدة ، وتنوعت فيها وسائل التوكيد ، ولم
يات في ذاتها تشبيه أو مجاز ، مما يدل على وثوق أصحابها وتحققهم مما يقولون.
- ٤- الرؤيا قد تحاكي الصورة في نفس الأمر وهو الأكثر في مرائي
الأنبياء- عليهم السلام- ، وقد تحاكي المعنى الرمزي وهو الأغلب في مرائي
غيرهم.
- ٥- تعددت القيود وتنوعت في آيات الرؤيا المنامية ، وكان لذلك

عظيم الأثر في إبراز المعاني وتوضيحها ، والمبالغة فيها.

٦- جاءت فواصل الآيات وختامها متمكنة في مكانها ، وكان لها دور عظيم في بيان المعنى وتوضيحه ، وتوكيده وتقريره حسب ما يقتضيه المقام.

هذه هي أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفعنا بما فيه ، وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نسيان ، ويعلم الله أنني ما أردت إلا الخير ، فأسأله - سبحانه - المغفرة على تقصيري ، والسداد والتوفيق في عملي ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

- ١- الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين عبدالرحمن السيوطى ت ٩١١هـ -
طبعة دار المعرفة - بيروت بدون.
- ٢- أساليب البيان والصورة القرآنية. د/ محمد إبراهيم شادى ط. دار والى
الإسلامية - المنصورة - الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٣- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ عائشة عبد الرحمن، ط.
دار المعارف - القاهرة - الثانية، بدون.
- ٤- أنوار التزليل وأسرار التأويل لناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر
البيضاوى، ت: ٧٩١هـ، ط. مصطفى الحلبي وأولاده بمصر - الثانية، ١٣٨٨هـ -
١٩٦٨م
- ٥- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، ت: ٧٤٥هـ، ط. دار الفكر -
بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٦- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى،
تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية - الأولى، ١٣٧٦هـ -
١٩٥٧م.
- ٧- تاريخ الأنبياء، د/ محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٣م.
- ٨- التحرير والتوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: دار سحنون
للنشر التوزيع - تونس.

٩- التعريفات للشريف الجرجاني، ت: ٨١٦هـ، ط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

١٠- تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز لأبي السعود العمادى، ت: ٩٥١هـ، ط. دار المصنف - القاهرة.

١١- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم، د/عبدالعظيم إبراهيم المطعنى، ط ١ مكتبة وهبة ١٩٩٩ م.

١٢- التفسير القرآن للقرآن للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، ط. دار الفكر العربى.

١٣- التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى، ت: ٦٠٦هـ، ط. دار الكتب العلمية - طهران - ثانية.

١٤- تفسير المنار للشيخ/ محمد عبده، تأليف/ السيد محمد رشيد رضا ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

١٥- تفسير روح البيان للإمام إسماعيل حقى البروسى، ط. دار الفكر العربى.

١٦- التقديم والتأخير فى القرآن الكريم ، حميد أحمد عيسى العامرى، ط دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٦ م.

١٧- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، تح/ محمد عبد الغنى حسن، ط. دار إحياء الكتب العربية.

١٨- التمهيد لابن عبد البر ، ت / مصطفى بن أحمد العلوي وغيره ، ط وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ، المغرب . ١٣٨٧ هـ

- ١٩- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، ط. دار المعرفة - بيروت - ثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٢٠- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، ت: ٦٧١هـ، ط. دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٢١- حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ت: ١٠٦٩هـ، ط. دار صادر - بيروت.
- ٢٢- حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، ط ١ دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠١م.
- ٢٣- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، ط. المكتبة الإسلامية - تركيا.
- ٢٤- الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، ط. مكتبة القرآن بالقاهرة.
- ٢٥- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح/محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ٢٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة شهاب الدين الألوسي، ط. إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٧- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط ١ المكتبة الإسلامية - بيروت ١٩٦٥م.

٢٨- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري
ت ٢٦١هـ، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٩- صورة من البيان القرآني، د/جلال الدين الذهبي، مطبعة الأمانة ١٩٨٤م.

٣٠- فتح الباري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ت
٨٥٢هـ، طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٥٩م.

٣١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام
الشوكاني، ت: ١٢٥٠هـ، ط. مصطفى البابي الحلبي بمصر- ثانية، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٣٢- الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري
المتوفى نحو سنة ٤٠٠هـ، ت/ محمد باسل عيون السود، طبعة - دار الكتب العلمية
- بيروت لبنان.

٣٣- في البلاغة القرآنية، د/ صباح عبيد دراز، مكتبة الكلية بدمنهور، بدون.

٣٤- في ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب، ط. دار الشروق - الثالثة عشرة
- ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٥- القاموس المحيط للفيروزابادي، ت: ٨١٧هـ، ط. مؤسسة الرسالة -
بيروت - الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٦- القول المنصف في تفسير سورة يوسف، محمد طه الباليساني، وزارة
الأوقاف العراقية، ١٩٨٣م.

٣٧- الكشف عن حقائق غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
للعلامة الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، ط. دار الفكر.

٣٨- الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت (١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م ، ت د/ عدنان درويش محمد المصري ، ط دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة.

٣٩- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ط دار التقوى .

٤٠- لسان العرب لابن منظور، تح/ عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ط. دار المعارف بالقاهرة.

٤١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، تح د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة، ط. مكتبة نهضة مصر - القاهرة - الأولى، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

٤٢- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الحديث - القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تح/ محمد سيد كيلاني، ط. دار المعرفة - بيروت - لبنان.

٤٥- من بلاغة القرآن، د/ أحمد أحمد بدوي، ط. مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

٤٦- من بلاغة النظم القرآني، د/ بسيوني فيود، ط. مطبعة الحسين الإسلامية - القاهرة - الأولى ١٤٢٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٧- من وحي القرآن، د/ إبراهيم السامرائي، ط اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس الهجري العراق ١٩٨١م.

٤٨- موسوعة تفسير سورة يوسف، تأليف/ عlish متولى بدوى البنى، ط
 جماعة مسجد الحسينان - الكويت.

٤٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى. ت: ٨٨٥هـ،
 تح/ عبد الرازق غالب المهدي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى،
 ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة.
٥	التمهيد.
٦	تعريف الرؤيا.
٩	الفرق بين الرؤيا والحلم.
١٢	المبحث الأول: رؤيا النبي ﷺ يوم بدر.
١٧	المبحث الثاني: رؤيا يوسف <small>عليه السلام</small> .
٢٥	المبحث الثالث: رؤيا صاحبي السجن.
٣٣	المبحث الرابع: رؤيا ملك مصر.
٤٤	المبحث الخامس: رؤيا إبراهيم <small>عليه السلام</small> .
٥٧	المبحث السادس: رؤيا النبي ﷺ في الحديبية.
٦٣	الخاتمة.
٦٥	المصادر والمراجع.
٧٢	فهرس الموضوعات.

محتويات العدد السادس والعشرين

الجزء الثانى

اسم البحث	الدكتور	عدد الصفحات
التخلص من التقاء الساكنين	د / عبد الله أحمد أحمد طلبة	٧٢ : ١
مفهوم النص مقارنة السنية نقدية	أ . د / محي بن أحمد الزهراني	١١٢ : ٧٣
حروف المعاني بين الأفراد والتركيب	د / جاد مخلوف جاد	١٨٤ : ١١٣
المعجم والدلالة	د / رمضان محمود محمد	٢٦٦ : ١٨٥
قصيدة على الحصرى القبراني	د / محمد محمد خميس شعبان	٣٣٤ : ٢٦٧
نظرات في المطلق والمقيد	د / أسعد عبد الغنى السيد الكفراوي	٤٧٤ : ٣٣٥
الرثاء في شعر أسامة بن منقذ	مصطفى عبد الرحمن إبراهيم	٥٨٦ : ٤٧٥
البلاغة القرآنية في آيات الرؤيا المنامية	د/ محمد مصطفى محمود ليلة	٦٦٠ : ٥٨٧